جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

العدد [٧٨]

سيف الله
خالد بن الوليد

أ. عبد التواب يوسف

القاهرة
١٤١٢هـ - ٢٠٠٢م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

سيف الله
خالد بن الوليد

أ. عبد التواب يوسف

العدد [٧٨]
القاهرة
ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

" خالـــد "

هذا هو الاسم الذى اختاروه له ، تُراها كانت نبـــوءة تحققـــت ؟ عندما قرأنا عنه ، ونحن بعد أطفال ، انبهرنا به ، إلى حد أننـــا كنـــا نغبط هؤلاء الذين يحملون اسمه ، ومما لا شـــك فيـــه أن عشـــرات الآلاف قد حظوا به ، تيمنًا ، وأملاً من الآباء ، الذين أطلقـــوا اســـمه على أولادهم ، فى أن يكونوا على شئ من شـــجاعته ، وعظمتـــه ، وخلود اسمه وفتحنا أعيننا فى دهشة ــ بلغـــت حـــد الذهـــول ، إزاء العبارة التى أطلقت عليه والتصقت به ، والتى تقول : " القائد الذى لم يهزم قط "، وتساءلنا :

ــ هل يمكن أن يوجد مثل هذا القائد ؟

وعجبنا ، حين عرفنا أنه ــ حتى وهو مشرك ــ لم يُهزم مـــــن المسلمين ، فى معركة أحد ، ويومئذ سألت معلمى :

ــ كيف تأتى لهذا الرجل أن يحقق كل هذه الانتصـــارات ؟ مـــن أى أكاديمية عسكرية تخرج ؟ وفى أى كلية حربية درس وتعلم ؟

وكبرنا ، ولم نتخل أبداً عن قراءته من جديد ، وظل التساؤل قائماً :

ـ كيف تأتى لهذا البطل أن تَدرُس الأكاديميات معاركــه ، وخططــه وأساليبه فى القتال ، وهو الذى شب وسط بحر من الرمال ، وليـــس فى يده إلا أسلحة متواضعة : حصان ، وسيف ، ورمح ، ودرع ؟!

ورأيت رسوماً فى كتاب ، عن " معركة اليرموك " ، واســتخدم المؤلف كلمة صعبة لم نكن نُحسن النطق بــها : " الاســتراتيجية " ، بجانب كلمة " التكتيك " وما إلى ذلــك ، مثــل الجنــاحين : الأيمــن والأيسر ، والمقدمة ، والحصار الذى فرضه على الروم ، فى ثنيـــة من ثنايا النهر : أنىّ له أن يدرك كل هذا ، وهو البـــدوى البســيط ، الذى يواجه امبراطورية لها تاريخ ، هى امبراطورية الروم ؟ ..

وحدث الزحف الكبير فى الصين ، وقام محلل عسكرى يقــارن هذه المعجزة التى قام بها " ماوتسى تونج " فـــى منتصــف القــرن العشرين ، مع المفازة التى قطعها خالد من بلاد الفرس إلى الشـــام ، قبلها بما يزيد كثيراً على ألف عام ، وإذا بهم ينتصرون لمـــا فعلــه خالد ، ويرونه أروع وأعظم وأخلد ..

لقد انتصر البطل على أعدائه ، ببراعته وقوته ، لكننـــا توقفنـــا طويلاً عند انتصار أكبر وأضخم وأخطر ، ذلك هو :

ــ كيف انتصر خالد على نفسه ؟!

فى ذروة الانتصار العسكرى يأتيه أمر بالعزل ، وكان ميســوراً له أن يأمر جيشه بأن يستدير ، ويترك أمر الروم ، ويتجه بــه لمــن

عزله ، لكن " خالد بن الوليد " ليس هو الذى يصنع ذلك ، بـــل لقــد تقبل الأمر فى يسر ، وهزتنا " عمرية حافظ " التى قال فيها إن خـالداً قبّل أمر العزل كما يُقبّل آى الله تاليها " ، وينحنى له ، ويترك موقعـه إلى أبى عبيدة بن الجراح ، الذى يأبى إلا أن يحتفظ بــــه ، ومعــه ، وبجانبه ، وتهتز مشاعرنا ونحن صغار ، كيف أمكنه التغلــب علــى نفسه ؟! . وفيما بيننا وبين أنفسنا انحزنا لخالد ، مع تقديرنـــا لأمــير المؤمنين : عمر بن الخطاب .. وكم ابتهجنا عندما أعاده إلى القيادة ، قائلاً عبارته الشهيرة :

ـــ أمّر خالد نفسه

ولقد لقن خالد الإنسانية كلها درساً ، كانت تحتاج إليــــه ، ذلـــك أن : القائد العظيم جندى أعظم !

والآن أدعوكم لقراءة الكتاب ، داعياً الله أن يهبنا مثل "خالـــد" . كم نحن فى حاجة إليه ، وفى نفس المكان ، ولا حاجة بنـــا للمزيــد من الكلمات .. فقط نرفع أيدينا إلى السماء ، نسألها أن يكون خالد هو القدوة لكل شبابنا وأطفالنا ، بل نتمنى أن يصبح كل منهم ، أو فى كل منهم ، مثله .

عبد التواب يوســف

الوليـــد

ـ١ـ

المولـــد

أضاءت المشاعل حى " بنى مخزوم " ، وارتفعت فـــى جوانبـــه الأنغام ، ودقت الطبول ، وعزفت الموسيقى ، وراح الناس يـــأكلون ويشربون ، ويغنون ويرقصون ، وقد عمـــت البهجـــة والفرحـــة .. و " الوليد بن المغيرة " ــ سيد القبيلة ــ يحمل الوليد الجديد ، يـــهزه بين ذراعيه فى حبور ، وينظر إليه فى إعجاب وحب .. هـــو طفـــل غير كل الأطفال : ضخم ، عظيم الجسم ، مفتوح العينين ، واضــــح القسمات ، يميل إلى البياض ، ويشع الذكاء مـــن وجهـــه .. وقـــدم الأعمام السبعة ــ وقالوا : عشرة ، أو ثلاثـــة عشـــر بيـــن ذكـــور وإناث ــ ليقدموا التهنئة لشقيقهم ، ومن بينهم هشام ، والفاكـــه وأبـــو حذيفة وأبو أمية .. وفى نفس الوقت أحـــاطت الخـــالات الجميـــلات بفراض الأم " لبابة بنت الحارث " يبـــاركن ، باســـمات ســـعيدات ، وكانت هناك " لبابة الكبرى ــ زوجة العبـــاس بـــن عبـــد المطلـــب وميمونة ، وأسماء ، وأخريات هزهن الطرب ، ورحـــن يرقصـــن ، وصوت جميل يشدو مع دقات الدفوف وعزف المزمار ..

وأقبل هشام ــ قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ــ على أخيـــه " الوليد " يتطلع للمولود ، ويسأل :

ـــ ماذا أسميته يا أخى ؟

ـــ هو " خالد " ..

واقترب " أبو أمية " ، الذى كان يسمى " زاد الراكب " ـــ إذ كان يتحمل وحده زاد القافلة عند السفر ـــ وتملى فى وجه الوليد ، وتساءل ..

ـــ ولماذا لا يبكى كالصغار ؟

ويرد الأب :

ـــ لست أدرى ، يبدو أنه شجاع صبور ..

قال الفاكه : لعله يدرك أنه من بنى مخزوم !

هز الوليد رأسه موافقاً ، وسلم الطفل لمن يحمله إلى أمه ، وقال لأشقائه :

ـــ هيا بنا نرحب بالضيوف .. وننحر الإبل والغنم على شرف (العزى) صنمنا الكبير ! كان الكثيرون قد جاءوا من أنحاء متفرقة إلى دار صاحب الملايين " الوليد " ليحظوا بعطاياه ، فقد كان الرجل الثرى يمتلك الذهب والفضة والبساتين والكروم ، وهو فى كل مناسبة يؤكد كرمه وسخاءه ، ولا يرد عن بابه طارقاً .. وهو يكسو الكعبة سنة ، وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها فى السنة التالية ، وهكذا .. لذلك أطلق عليه الناس " الوحيد " ولقبوه " ريحانة قريش " .

وما أن انتهت الاحتفالات حتى راحوا يبحثون للصغير الوليد عن مرضعة ، تحمله إلى البادية ، يقاسى حرها وبردها ، ويتدرب

فيها على الخشونة والجلد ، وشظف العيش وتحمل الجوع والعطـــش .. كما يستقيم لسانه ، وينطق لغته بشكل سليم ، ويصبح قادراً علـــى التعبير عن نفسه .. يجب ألا يعتمد على مال أبيه وحسبه ونسبه ، بل يجدر به أن يصنع بنفسه حياته ومجده ..

ــ٢ــ

المصارعة

عاد الصغير خالد من البادية والصحراء إلى مكـــة والحضـــر ، وتصور الناس أنه سوف يعيش حياة الرفاهية والرخاء ، ومال أبيـــه ونفوذه وسلطانه يتيح له ذلك ، ويبيحه ، بل يمكنه من أن يكون طفـلاً رقيقا مدللا .. لكن الغريب أن المدينة لم تجتذبه ، ولم يـــهتم بـــها أو بمباهجها ، بل انصرف عنها إلى أشياء أخرى ، وكأنما اســـتطاعت شمس الصحراء أن تعجم عوده ، وأن تصنع منه إنسانا جديدا .. لقـــد استرعت الخيل أنظاره ، ولم يكن يسعده شئ فى الوجـــود قـــدر أن يمتطى الحصان مع أبيه " الوليد " الذى صار يشكو منه قائلا ..

ـــ هذا الغلام لا يريد أن ينزل من فوق صهوة الفرس !

كان الأب يردد هذه الكلمات ، وكأنما هى نبوءة ، أو إشارة يرسم بها مستقبل الصغير الذى ما إن ينزلوه إلى الأرض من علـــى الحصـــان حتى يحمل فى يده سيفاً خشبياً ، يقاتل به الأعداء .. وهو يحـــاول أن يطلق السهم ، لكن القوس لا ينثنى بين يديه ، فيقذف به قائلاً ..

ــ لا حاجة بى إليه .. أريد أن ألتحم بأعدائى .. لن أطلق عليهم السهام ، بل ولا رغبة لى فى الحراب ، هى تبعدنى عن خصمى ، ولا سبيل للانتصار عليه إلا بالسيف والقوة !

وينمو الصغير وقد جعل من ساحات مكة حلبات للمصارعة يكشف فيها عن قوته ومهارته ، وهو ينطلق مع أصحابه إلى الصحراء ، وينقسمون إلى حزبين ، يقاتل كل منهما الآخر ..وكان حزبه هو المنتصر دوماً .. وهو خلال ذلك يقبل على الطعام ، لا يعاف منه شيئاً ، بل يقبل حتى على " الضب " يأكل لحمه ، ورفاقه لا يقربونه ، إنه يريد أن يكبر ليركب الحصان وحده ، ويحمى قبيلته ، ويعيد أمجادها .. وقد أضحى أضخم من أقرانه وأكبر ، وهو يريد أن يثبت لهم أنه أقوى وأشجع ،ولا يجد أمامه غير " عمر " الذى يكبره بسنوات .. ويتنازعان ، وقد تحدى كل منهما الآخر ، وشمر عن ساعده ، والأولاد من حولهما ينفخون فى النار ، ويشعلون المنافسة بينهما ، وهما شبيهان فى كل شيء ، حتى لا تكاد تفرق الواحد منهما عن أخيه .. إنه الشبه بين الأقرباء .. وكان واضحاً أن " عمر بن الخطاب " و " خالد بن الوليد " ندان متقاربان ، لذلك ما إن التحما حتى ثار الغبار والتراب حتى ليكاد يحجبهما عن الرؤية ، وعلا الضجيج وارتفع الصراخ ، وقد انقسم الأولاد إلى قسمين كل يشجع صاحبه ، ويهتف له .. وانجلت المعركة عن ساق مكسورة لعمر ، وأسى عميق أحس به خالد إزاء

هذا الذى حدث ، فما كان يريد أن يتماديا فـــى صراعـــهما ، لذلـــك انحنى على تلك الساق يربطها ويرعاها ، ولم يشعر بنشوة الانتصـــار وفرحته ، بل ضاق بما تناقله الأولاد عنه ، وعن بطولته ، فقد كـــانت تربطه مع عمر صداقة عميقة وحب مكين ، استمر العمر كله ، رغم الاختلاف بين الشخصيتين فى أمور كثيرة ..

ومضى خالد إلى أبيه فى الكعبة يحكى له ما حدث ..

ـ٣ـ

البناء

كان الوليد يمضى أغلب وقته فـــى الكعبـــة ، إنـــه بعـــد وفـــاة عبد المطلب سار إليها ، طلباً للرئاسة ، وصار كفيـــلاً بـــها بـــدون معارضة من أحد .. إذ هو موضع تقدير الجميع واحترامهم ، كريم ، شجاع ، قادر على أن يشغل هذا المنصب الكبير عن جدارة .. وهـــو فى هذا اليوم لم يكن لديه وقت يستمع فيه إلى ولده خالد ، فقد شـــغلته عنه أمور جسام ..

كانت الكعبة المشرفة قد قدم بها العهد ، كمـــا أن بناءهـــا بـــدأ يتداعى ، ولم يعد فى استطاعتها أن تحتمـــل العواصـــف والزمـــن ، وأصبح لابد من إعادة بنائها ، لكن الجميع يرتجفـــون أمـــام قدســـية أحجارها ، لذلك خافوا أن تمتد أيديهم إليها ، وكان لابد من شـــخص مبادر فى استطاعته أن يأخذ الخطوة الأولى ..

وعندما اجتمعت قريش للتداول فى الأمر اتخذت قــرار إعــادة البناء ، وبقيت مشكلة من يقدم على حمل المعول .. وكان الوليد أول من ضربه ، وصوته يعلو فى أهله ..

ــ يا معشر قريش

لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبا .

لا يدخل فيه مال حرام ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد !

واندفع الجميع فى حماسة يقيمون الكعبة من جديد .. وقد تحمــل بنو مخزوم وحدهم بناء ربعها ، بين الركنين : الأســود واليمـــانى ، واشتركت كل قريش فى بناء بقية الأركان .. وما كان هذا بجديـــد ، فقد ساهم الوليد بكسوتها عاماً بعد عام من قبل ..

وعندما تم البناء ، وبدأ النزاع حول من يكون له شرف وضـــع الحجر الأسود الأسعد فى مكانه ، بانت نذر الشر ، وكـادت تحـدث الوقيعة ، وينشب القتال .. وهنا يأتى الرأى الحكيم من آل مخـــزوم .. يقول أبو أمية ــ عم خالد ــ والذى كانوا يلقبونه بـــ " زاد الركب " :

ــ ماذا ترون فى أن ندع الحكم بيننا إلى أول داخل من باب الحــرم ، ونترك له أن يختار من يرفع الحجر ؟!

وافق الجميع على هذا الاقتراح ، وكأنما ألهمته به السماء ، مــن أجل أن يدخل محمد بن عبد الله ــ قبــل أن يــنزل عليـه الوحــى بالإسلام ــ ويشير عليهم بأن يأتوا بثوب يضعـــون عليـه الحجـر

الأسود ، ويأخذ أربعة بأطرافه ، لينال الجميع ذلك الشرف الذى مـــا بعده شرف !

تهلل الناس لهذه الفكرة السديدة ، ولاقت قبولاً وارتياحاً .. وكـــان أبو حذيفة ــ عم خالد ــ أحد الأربعة الذين أخذوا بــأطراف الــرداء وحملوا الحجر الأسود الأسعد إلى موضعه من الكعبة المشرفة ..

وكان خالد وعمر يشهدان ذلك الذى يحدث ، جنباً إلى جنـــب ، وقد نسيا ما جرى بينهما منذ بعض الوقت ، خاصة وقد شاركا معـــا ببعض الجهد فى البناء الجديد ، وقد شعرا بالرضا كل الرضـــا عـــن ذلك الإنجاز الكبير .. وإن كانت الخيل تجتذبهما أكثر من أى شـــىء آخر هى والنزال والقتال ! ، وهما لا يعطيان الأصنام ذلك القدر من الاحترام الذى تمنحه قريش لها ..

قبل الإسلام

ـ ١ ـ

الغلام

أقبل الضياء وأشرقت الأرض بنور ربها ، ونزلت الرسالة علــى " محمد بن عبد الله " وجاءه الوحى فى حراء :

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علـــق * اقــرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم *﴾ [١] .

صدق الله العظيم

وكان خالد بن الوليد فى ذلك الحين فتى ناشئا ، لم تقبــل قبيلتـــه " بنو مخزوم " بالدعوة الجديدة ، وأبى الوليد سيدها إلا أن يظل علــى دين آبائه وأجداده .. بل إنه كان يرى أنه أولى بالنبوة إذا هى جــاءت من السماء ! ، فهو ثرى ، مهاب ، وهو حامى الكعبة ، وقومه ســادة المعارك والقتال ، أى أنه قادر على أن يحمل الرسالة ، لذلك ضـــاق بأن تنزل على " محمد " ﷺ .. وتبع خالد أباه ، وكان له من فتوتـــه وحماسته ما جعله يقف من الدعوة موقف الخصومة والعـــداء .. إن أهله يريدون القديم على ما هو عليه ، وهم أغنياء ومرابون ، ولـــهم

١- العلق : ١-٥ .

مركزهم الكبير ، والدين الجديد يدعو للمساواة بين الناس ، وهم عنده كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بـــالتقوى والعمـــل الصالح .. ثم هو يحرم الربا ، ويأخذ من الأثرياء ما يعطيه للفقراء ، فضلاً عن أنه جاء بغير ما عندهم من معرفة وعلم ، لذلك وقفوا فـــى وجهه ، وكانوا من أكثر القرشيين مقاومة له ، وحرباً عليه .. حتـــى لقد كان لبنى مخزوم وحدهم فى موقعة بدر ثلاثون فرساً مـــن مائـــة فرس لقريش كلها ، وكان لهما مائتا بعير من بين ستمائة .. وذلـــك غير الزاد والطعام والشراب .. لقد شارك بنو مخزوم بكل ذلك علـــى الرغم من وفاة بطلها وسيدها " الوليد " الذى رحل عن الدنيا فى العام الأول من الهجرة النبوية الشريفة ، مخلفاً وراءه أشقاء وأبناء قـــادرين على أن يمضوا على نهجه ، ويسيروا فى نفس طريقه ..

وكان "خالد" فى ذلك الحين ما زال شغوفاً بالخيل ، والحـــرب ، والنضال ، وهو كما كان يقول أبوه لا يريد أن ينزل من فوق صـــهوة الحصان ، ولقد أصبح فارس الفرسان وأشجع الشجعان ، رغم صغـــر سنه ، وصارت كلمة (الغلام) لقباً له ، ما إن تذكر حتى تعرفه كـــل مكة ، وما حولها .. إنه قوى شجاع مرهوب الجانب لذلـــك اســـتبقته قبيلته ليحمى مضاربها حينما مضوا إلى معركة بـــدر .. فقـــد كـــان غلاما لا يحبون له أن يقاتل ، إذ كان يلقـــى بنفســـه فـــى المعـــارك لا يبالى شيئا ، ورأوا أن ذلك يفيد أكثر فى حراسة النساء والأطفـــال من قومه .. بينما مضوا هم إلى بدر ليلقوا الهزيمة ..

-٢-

أحـــــد

فى العام الثالث لهجرة الرسول ﷺ وبعد عام كامل مــن نصــر بدر زحف جيش قريش ليعسكر عند جبل أُحد قرب المدينة .. كـــان جيشاً كبيراً يضم ثلاثة آلاف من المقاتلين ومــــائتين مــن الفرســان ومائتين من حاملى الدروع ، وكان الغلام خالد يقـــود ميمنـــة هـــذا الجيش ، بينما فى الميسرة عكرمة بن أبى جهل .. وراحـــت نســاء قريش ينشدن ويغنين ، ويحمسن الجند ، وقد تركوا إبلـــهم وخيولـــهم ترعى فى حقول المدينة ، تحدياً للمسلمين وإثارة لهم .. فخرج إليـــهم النبى ﷺ فى ألف مقاتل وفارسين اثنين ، ومائة من لابسى الدروع .. وكان من بين المسلمين رافع وســـمرة ، وهمـــا لا يتجـــاوزان ســـن الصبا ، ويشب صبى آخر على أطرافه ليقبلوه مجاهداً فى سبيل الله ، كما كان بينهم شيوخ كبار تجاوزوا سن الحرب والقتال ، ولو أنـــهم قعدوا فى بيوتهم لما عاتبهم أحد أو لامهم ، غير أنهم كانوا يتمنون أن يستشهدوا فى سبيل الله وهم يقاتلون أعداءه .. لقد كان عدد المســلمين ثلث عدد المشركين ، وفجأة نقص عدد المسلمين ثلاثمائة ، إذ انسحب واحد من المنافقين ومعه رجاله قبيل المعركـــة ، لكـــن الأبطـــال لـــم ينزعجوا لذلك ولم يقلقوا ..

اتخذ النبى مكانا عاليا ليعسكر فيه رجاله ، فيشرف على العـــدو من مكان مرتفع ، ولكى يحمى جبل أُحد ظهورهم .. غير أنه كـــان

هناك ممر فى وسط الجبل ، يمكن لمن ينفذ منه أن يــهدد جيشــهم ، لذلك وضع عليه الرســـول ﷺ خمسـين مـن الرمـاة ، وأمرهـم ألا يغادروا أماكنهم مهما حدث .. قال لهم ..

ــ قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظـهورنا ، فـإن رأيتمونـا قـد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا .

إلى هذا الحد كان الرسول القـائد يريـد مـن هـؤلاء الرمـاة ألا يبرحوا مكانهم ، إذ كان يدرك خطورة الأمـــر ، قبـل أن تبـدأ المعركة .. وعندما بدأت كانت هناك المبـارزة المعتـادة .. خـرج الحمزة بن عبد المطلب عم النبى فقتل حامل راية المشــركين .. ثـم نشب القتال حادا عنيفاً ومر بثلاث مراحل متتالية ..

* فى أول الأمر هجم المسلمون فى بطولة وإقــدام ، وقــاومت قريش ، لكنها لم تكن بقادرة على أن تثبت أمام هذه الفئـــة المؤمنـة المضحية .. ولقد تساقط المشركون صرعى ، حتى إن ســبعة مـن حاملى الراية لقوا مصرعهم ، واحدا بعد الآخر ، ولم تجـد قريـش سبيلا إلا أن تفلت بجلدها وتهرب ، ولم يتركهم محمد وأصحابه ، بـل طاردوهم وتعقبوهم ، وقد ظهرت تباشير النصر !

* فرح حماة الممر ، وأغراهم النصر ، فنسوا تلـك التعليمـات التى صدرت إليهم .. لا تتركوا أماكنكم : انتصرنا أو انـهزمنا ، وإذا بهم يخالفون الأوامر ، وانطلق أكثرهم يشارك فى مطاردة الـــهاربين من قريش ، وهم يقولون :

ـ ما مقامنا هنا وقد انهزم المشركون ؟!

* وكان خالد بن الوليد قائد الميمنة وفارس بنى مخزوم يرقـــب المعركة كالصقر ، وما إن رأى حمـــاة ظـــهر المســلمين يــتركون مواقعهم حتى انطلق يدور من حولهم وأشار إلى عكرمـــة أن يفعــل نفس الشيء ، وبذلك طوقوا جيش المسلمين ، وحملوا على من بقـــى من الرماة فقتلوهم ، ومعهم أميرهم عبد الله بن جبير .. وراح خــــالد يهاجم مؤخرة جيش المسلمين فى عنف وقوة ، وثبتت قريش وتســاقط سبعون من الشهداء ، بينهم الحمزة عم الرسول ، وأشيع أن الرســـول قد قتل ..

ارتفع صوت واحد من المسلمين : ماذا نصنـــــع بالحيـــاة بعــد محمد ؟.. وتجمع المؤمنون الصامدون من جديد ، وعندما عملـــوا أن الرسول بخير امتلأت قلوبهم بالأمل ، وثبتت أقدامـــــهم ، وواصلـــوا القتال فى بسالة منقطعة النظير ، وصعدوا إلـــى جبـــل أُحـــد حتـــى لا تلحق بهم قريش .. وحاول خالد أن يتبعهم ويتسلق الجبل ، لكـــــن المسلمين بالأحجار والنبال اضطروه إلى أن يبتعد وجنده .. وتكـــــرر الهجوم من قريش ، لكنه كان بدون طائل فـــانصرفت وأبـــو ســـفيان يردد :

ـ يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ..

لقد انتهت المعركة ، وخالد يتوق للمضى بجنده إلى المدينة فـــإن حماتها عند جبل أحد ، لكن جيش قريش انطلق عـــائداً إلـــى مكـــة ،

مكتفيا بذلك النصر الذى أحرزوه بفضل خالد الذى كان ينطلق وراء جنده ، وأذهله أن المسلمين لم يتجهوا للمدينة ، بل مضوا وراء جند قريش ، وحمى خالد ظهورهم إلى أن فروا خشية أن يلحق بهم المؤمنون .. وقد لقنتهم " أحد " درساً خالدا : لقد ترك الرماة أماكنهم من أجل الغنائم ، فخسروها وخسروا الموقعة ذاتها .. إن النصر يحتاج إلى الحماية ، وَإلاّ انقلب إلى هزيمة .. لكن الهزيمة يجب ألا تقعدنا عن السعى إلى النصر ..

-٣-

الخندق

ضاق اليهود بنجاح دعوة الرسول ﷺ وكان قد أعطاهم الأمن والأمان ليعيشوا فى المدينة ، لكنهم شعروا أن نفوذهم قد تقلص ، وأن دولتهم قد دالت لذلك راحوا يطوفون بالقبائل يثيرونها ضد " محمد " ثم ينقلون إلى قريش ما وصلوا إليه من تأليب الأحزاب وتجميع العرب لمحاربة المسلمين ، وبقى أن يزحفوا للقضاء عليهم .. ولم يكن الرسول ﷺ غافلاً عما يصنعه اليهود بخبثهم ولؤمهم وكذبهم ، وعلم بما يدبرونه ، لذلك استشار أصحابه فيما يصنعون ، فاقترح سلمان الفارسى حفر خندق حول المدينة ..

وتحمس المؤمنون للحفر ، وكان الرسول يعمل مثلهم ، وينقل التراب معهم ، وهو ينشد :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلـن سكـينة علينـا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينـا

واستمر الحفر بعض الوقت ، وتوقف سلمان عند صخـرة لـم يستطع أن يقتلعها أو يحطمها فاشتكى إلى الرسول ﷺ فطلب إناء بـه ماء ، وصبّ منه فوق الصخرة وضربها ثلاث ضربات ، وتطـايرت شرارات ثلاث .. رآها سلمان وسأل الرسول عنها فقال ﷺ :

ـــ أما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن .
وأما الثانية فإن الله فتح عليَّ بها الشام والمغرب .
وأما الثالثة فإن الله فتح عليَّ بها المشرق .

وزحفت قريش فى عشرة آلاف رجل ، ومعها ألوف من القبـائل الأخرى ، لكنهم وقفوا جميعاً عاجزين أمام الخندق ، فقد حال بينـهم وبين المسلمين ، الذين أقاموا عليه الحراس ليل نـهار .. وتراشـق الطرفان بالنبال عشرين يوماً .. وضاق الحال بالمسـلمين ، خاصـة وقد نقض اليهود العهد وانضموا إلى المشركين ، واسـتعدوا لطعـن المؤمنين فى ظهورهم .. واشتد البلاء ، خاصة وخـالد بـن الوليـد يحاول بفرسانه اجتياز الخندق ومعه كتيبة قوية ، راحت تبحث عـن ثغرة ، إلى أن استطاعوا الوصول إليها ، لكن المسلمين الذين كـانوا يحرسونها بقيادة (أُسيد بن حضير) قاتلوا فى بسالة منقطعة النظير ،

إلى أن حل الظلام ، وانسحب المتحاربون كالمعتاد ، بينما ذلك الصقر خالد يروح ويجئ ليجد سبيلاً للعبور إلى المدينة ، وراح يطوف لعله يعثر على منفذ ، وكان الحراس مفتوحي العيون ، متنبهين ، يقظين له ، ففوتوا عليه الفرصة ، وردوه بقوة .. كفاهم ما فعله فى (أحد) .

وعندما طال الحصار بعث الرسول " نعيم بن مسعود " ليوقع بين المشركين ، فعبر الخندق إليهم ، وقال لهم إن اليهود صالحوا محمد ﷺ ووعدوه أن يعطوه بعضاً من رجالات قريش ليضرب أعناقهم مقابل أن يصالحهم .. وذهب إلى اليهود يقول لهم إن قبيلة قريش قد تنسحب وتترككم وحدكم فى مواجهة المسلمين ، وبذلك تُهزمون ، والسبيل لكى تستبقوا القبائل أن تطلبوا منهم بعض رجالاتهم كرهينة .. وحين طالبوا قريشاً بذلك تنبهت لما قاله نعيم وتصورته صدقاً ، لذلك رفضت ، وتنازع اليهود وقريش إلى أن هبت ريح عاصفة فى ليلة حالكة السواد ، أطاحت بهم وجعلتهم ينسحبون ويفكون الحصار .. وخشى خالد أن يطارد المسلمون قريشاً ، فبقى ومعه مائتا فارس يحمى انسحابهم المهين .

مع الرسول

ـ ١ ـ

المسلم

اتجه المسلمون فى صلاتهم إلى الكعبة ، واتجهت إليها قلوبهم ، ورأى الرسول ﷺ أن يمضى إليها فى عمرة ، وصحبه نحو ألف وخمسمائة ، لا يريدون حرباً ولا قتالاً ، هم فحسب يريدون زيارة بيت الله الحرام .. وخشيت قريش أن يكون فى الأمر شىء ، فبعثت كتيبة من فرسانها يزيد عددها على مائتى فارس ، على رأسهم فارس الفرسان خالد بن الوليد ..

وقف خالد بجنده وخيله يحول بين المسلمين وبين أداء العمرة .. وعندما حان وقت صلاة الظهر قام الرسول عليه الصلاة والسلام إماماً يصلى بالمسلمين ، وكانت هذه فرصة سانحة لخالد يغير فيها عليهم ، لكن نفسه الأبية أبت ، ورفض أن يهاجم أُناساً مسالمين مصلين ، وانتصرت أخلاق الفارس النبيل ، وانتظر خالد بعيداً يرقب الموقف إلى أن تم صلح الحديبية وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة ..

وذات يوم تلقى خالد فى مكة رسالة من أخيه الوليد من المدينة .. وكان المسلمون قد أسروا الوليد فى غزوة بدر ، وكانوا يعرفون عداء أبيه للإسلام ، وثراءه ، لذلك طالبوا بفدية كبيرة تصل إلى أربعة آلاف درهم ، واستعاضوا عنها بدرع أبيه وسيفه .. وطالت

المساومة والمفاوضة و " الوليد " أسـير فـي المدينـة بيـن أيـدي المسلمين ، وعندما دفع أهله الفدية أطلقوا سراحه ، وعاد إلى مكـة ، وإذا به يعلن إسلامه بين دهشة الجميع وذهولهم .. سألوه :

ــ لماذا لم تسلم قبل دفع الفداء ؟

أجاب : خشيت أن تظنوا أني أسلمت خوفاً من الأسر !

وقد لقي الوليد عذاباً شديداً من بني مخـزوم إلـى أن اسـتطاع الإفلات منهم ، وسار على قدميه إلى المدينة ليسلم .. كما أسلم أخوه هشام وأختاه فاطمة وفاختة ، وبقي خالد على عناده ، إلى أن وصلتـه رسالة أخيه التي يقول فيها :

أما بعد ، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عـن الإسـلام .. وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام يجهله أحد ؟

سألني رسول الله ﷺ فقال :

ــ أين خالد ؟

قلت : يأتي الله به ..

فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ..ولو كان جعل نكايته وحده مـع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره !

فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ..

فقد فاتتك مواطن صالحة .

قرأ خالد خطاب أخيه .. قرأه أكثر من مرة ، ومما لا شك فيـه أنه راح يفكر طويلاً في الأمر ، ولا بد وأنه سأل نفسه :

ـــ ماذا يكون ردى على أخى ؟ كيف أجيبه على خطابه ؟ ..

ولعله تحدث طويلا إلى نفسه فى ذلك الحين .. لقد أسلم كثيرون من بنى مخزوم ، وبقى هو مصرا على ما كان عليه آباؤه ، وهو لم يكتف بذلك بل لقد حارب المسلمين ، وترصدهم ، وهو فى كل مرة لا يظفر بهم بالكامل ، وإنما ينتهى به الأمر وهو على يقين من أن فى " محمد " سراً لا يدريه ، وأن هناك من يحميه ، ويحول بيننا وبينه..

ونام خالد وهذه الأفكار تطوف برأسه ، وإذا به يرى فى المنام كأنه فى بلاد ضيقة مجدبة ، فخرج منها إلى بلد أخضر واسع .. فنهض فى الصباح مستبشراً ، وقرر بينه وبين نفسه أن يمضى من مكة إلى المدينة .. ورأى أن يستشير بعضاً من أصحابه ، فذهب إلى صفوان بن أمية ، وقال له ..

ـــ يا صفوان ، ألا ترى ما نحن فيه ؟

ـــ ماذا تريد أن تقول ؟

ـــ لقد ظهر " محمد " على العرب والعجم ، لماذا لا نتبعه ، وشرفه شرف لنا ؟

مضى خالد عن صفوان ، فهو موتور ، حاقد ، قُتل أبوه وأخوه فى معركة بدر .. وبحث خالد عن عكرمة بن أبى جهل ، وكان موقفه مثل موقف صفوان .. ورأى خالد أن يستطلع رأى عثمان بن أبى طلحه ـــ صديقه ـــ وكان هو أيضاً قد قتل آباؤه ، وتردد خالد فى مصارحته ، لكن عزمه كان قد استقر على الرحيل ، حتى لو كان

وحده ، وأعدَّ ناقته ليمضى إلى المدينة .. ومر على " عثمان بن أبـى طلحة " ليقول له :

"ـ يا عثمان ، لقد أصبحنا مثل ثعلب فى جحر ، لوصبوا عليه قليـلاً من الماء لخرج ، فما بالنا نعاند ؟!

وكانت المفاجأة أن قبل صديقه قوله ، وأخرج راحلته ، ومضيا معـاً إلى المدينة ، ولم يكونا قد ابتعدا كثيرا عن مكة حين لقيا عمرو بـن العاص ، وكان هو أيضاً على الطريق ليسلم .. وفى المدينة اسـتقبلهم الرسول ﷺ ، كان باسماً راضياً ، وتقدم منه خالد قائلاً :

ـ السلام عليك يا نبى الله

ـ وعليك السلام

ـ إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ..

قال ﷺ ..

ـ " الحمد لله الذى هداك ،

قد كنت أرى لك عقلاً ،

ورجوت أن لا يسلمك إلا لخير "

ومضى خالد إلى شقيقه الوليد يقدم له عميق الامتنان والشـكر .. ويرد الوليد :

ـ ما معنى الأخوة ؟ ما جدوى أن تكون شقيقى ولا آخذ بيدك إلـى النور والخير ؟!

يا ابن أمى ، وأبى ، يا أخى ، وشقيقى ..

مكـــــة

فارق الثلاثة (خالد) و(عمرو) و (عثمان بن أبـــي طلحـــة) مكة ، وتركوها بلا حماية ، وكأنهم جاءوا بمفاتيحها إلـــى المدينـــة ، ومقاليد كعبتها المشرفة ، لذلك كان قوله عليه الصلاة والسلام :

ــ **[رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها]** .

وكان لا بد وأن يزحف عليها الرسولﷺ بعـــد غـــدر رجالـــها بعهودهم ونقضوا صلح الحديبية ، إذ انقضوا علـــى خزاعـــة حليفـــة المسلمين ، وجاء أبو سفيان ــ زعيم قريش ــ يحاول إنقاذ ما يمكـــن إنقاذه ، فلم يقبلوا وساطته وتقدموا فى عشرة آلاف مقاتل نحو مكـــــة ليدخلوها من أبوابها الأربعة ..الرسول عليه الصـــلاة والســـلام فـــى كتيبته الخضراء .. وسعد بن عبادة .. والزبير بن العوام .. وخـــالد بن الوليد ..

وكان أبو سفيان والعباس عـــم النبـــي يرقبـــان مـــرور جيـــش المسلمين .. قال أبو سفيان :

_ ما أعظم ملك ابن أخيك ..

وابتسم العباس وقال : إنه ليس بملك ، إنما هى النبوة !

وعندما بدأ مرور كتيبة خالد بن الوليد سأل أبو سفيان :

ــ من هذا ؟

ــ هذا خالد بن الوليد ..

ـ الغلام ؟

ـ نعم !

كان اللقب مازال عالقا به منذ أطلقه عليه أبوه وهو طفل ، وكان هو ما يزال غير راغب عن أن ينزل من فـوق صـهوة فرسـه .. ومضى إلى مكة ، واتجه كل واحد من الباب الذى خصـص لـه ، وكان النبىﷺ قد نهى عن القتال .. وبينما كان خالد فى كتيبته يخطـو إلى داخل مكة إذا به يلقى مقاومة من كتيبة للمشركين علـى رأسـها صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ـ رفيقه فى أحـد وتصـدوا له وأطلقوا عليه سهامهم ورفعوا فى وجهه السلاح ، فما كـان منـه إلا أن أجهز عليهم ، وأعمل عليهم ، وأعمل فيهم سيفه حتـى فـروا هاربين بعد أن سقط منهم نحو ثلاثين قتيلاً ..

وعندما نقلوا إلى الرسولﷺ ما حدث ، وكان قد سمع من قبـل من يقول :

ـ إنه يوم الملحمة

فرد عليه الصلاة والسلام

ـ بل إنه يوم المرحمة

لذلك ضاق بما حدث من كتيبة خالد ، وقال عليه الصلاة والسلام :

ـ ألم أنْهَ عن القتال ؟

ـ إنه خالد : قوتل فقاتل ..

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ قضاء الله خير ..

وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فـــى ديـــن الله أفواجـــا ، وراحوا يرددون أروع صيحة حرية فى تاريخ الإنسانية ، تلك التـــى أطلقها الرسول صلوات الله وسلامه عليه حين دخـــل إلـــى الكعبـــة وجاءته قريش ، وسألهم :

ـــ يا معشر قريش ، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً .. أخ كريم وابن أخ كريم

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء !

ويهتز الوجود لهذه العبارة القصيرة الوجـــيزة ، وتـــهتز لـــها النفوس .. لقد عفا النبى ﷺ عن هؤلاء الذين آذوه ، والذين أخرجـــوه من بلده ، والذين حاربوه وقاتلوه ..

وجاءه خالد يحكى ما حدث ، ويبرره ، ويتقبل الرسول منه عنده ويكل إليه مهمة جديدة ..

ـــ٣ـــ

العُـــزَّى

بعد فتح مكة بعدة أيام استدعى الرسول ﷺ إليه خالد بن الوليـــد ، والجميع يتساءلون :

ـــ لماذا خالد ؟ ماذا هنالك ؟ سرية جديدة ؟ غزوة أخرى ؟

لم يطل بالناس الأمر ، إذ دخل عند الرسول وخرج ليعلن إليهم أنه قد تلقى الأوامر بأن يمضى مع ثلاثين فارسا لكى يهدموا (العـــزَّى) ،

ذلك الصنم الضخم ، الذى يقف قرب مكة .. وقد تلقى البعض الخبر فى دهشة ما بعدها دهشة .. ومن جديد تساءلوا :

ــ لماذا يكون من نصيب خالد أن يطيح بهذا الصنم ويتخلص منه ؟

هل انتدبه الرسول ﷺ عن قصد لهذه المهمة ؟ أم هى مجرد صدفة لا أكثر ولا أقل ؟

إن أهل مكة يعرفون أن (العزّى) كان الصنم المفضل لدى " الوليد " والد خالد ، وكان موضع تبجيل من جانب بنى مخزوم ، وكان كهنة هذا الصنم من بنى سليم الذى قاتلوا مع المسلمين فى معارك عدة وبالذات فى غزوة حنين ..

ــ ماذا أنت فاعل يا ابن الوليد ؟!

إن (العزّى) كان فى الأصل شجرات ثلاثة ، صارت مقدسة ومعبودة بعد أن كان الناس يذهبون إليها فراراً من برد تهامة فى الشتاء ، وزعموا أن لهذا الصّنم شيطانة يتبادل معها الحديث ، يوعز إليها بما يريد ، فتحقق مشيئته وتنفذ أوامره .. لذلك لم تكن المهمة يسيرة على (خالد) نفسياً ، إذ للمكان ذكريات طويلة عنده ، لذلك مضى على حصانه وهو يستعرض شريط الأحداث القديمة إنه يذكر كيف كان أباه يأتى إلى (العزّى) ومعه ما عنده من إبل وغنم ، فيذبحها ، ويقيم عندها ثلاثة أيام ، وينصرف بعد ذلك مسرورا ، ويرجع إلى أهله راضياً ، مقتنعاً بأن ما طلبه سوف يتحقق .. وراح خالد يفكر فيما مات عليه أبوه ، لقد ظل ــ إلى أن ودع الحياة ــ

على دين آبائه وأجداده ، وأنه كان يقـــدم القرابيـــن لمـــا لا يبصـــر ولا يسمع ، ولا يضر ولا ينفع .. وشعر بأسف عميق لوالده .. وكان خلال أفكاره هذه قد قطع الطريق إلى العزّى ، ووجد هنـــاك جمـــهرة كبيرة من الناس تتساءل :

ــ هل يقدر خالد على هدم هذا الصنم ؟

إن الأمر سهل يسير فى نظر البعض ، وصعب غاية الصعوبـــة فى نظر آخرين ، ولم يطل الجدل بينهم ، لأنهم رأوا خالدا يتقدم نحـــو الصنم فى شجاعة نافضاً عنه كـــل الذكريـــات القديمـــة ، وإن هـــى إلا لحظات وسقط العزّى سقوطاً مدويـــاً ، وتنـــاثر قطعـــا صغـــيرة محطمة بين تهليل الناس وتكبيرهم : الله أكبر .. الله أكبر ..

وعاد خالد إلى الرسول ﷺ ليقول : الحمد لله الذى أكرمنـــا بـــك وأنقذنا بك من الهلكة ، كم رأيت أبى يتقرب إلى العـــزّى وكـــم أنـــا حزين من أجله .. قال ﷺ :

ــ إن هذا الأمر إلى الله

فمن يسره للهدى تيسر له

ومن يسره للضلالة كان فيها .

غـــزوات

ـ١ـ

مؤتـــــة

قتل اثنان من الرسل الذين بعث بهم الرسول ﷺ إلى شمال الجزيـرة للدعوة إلى الإسلام ، وكان لابد من تأديب القتلـة ، لذلك أمـر ﷺ بإعداد جيش عدده ثلاثة آلاف جندى .. وكان من بينهم خالد بن الوليد .. حديث العهد بالإسلام ، إذ لم يكن قد مرَّ على وصوله إلى المدينة غير شهرين أو ثلاثة أشهر .. وكان ﷺ اختار قائد هذا الجيش وهو زيد بن حارثة ــ والد أسامة بن زيد ــ وإذا أصيب يتولى القيادة جعفر بن أبى طالب .. فإن قتل يقوم عبد الله بن رواحة مقامه .. وإذا استشهد اختار المقاتلون من بينهم من يحمل العبء .

وقبل مغادرة المدينة نصحهم عليه الصلاة والسلام أن يدعو الناس إلى الإسلام ، فإذا قبلوا كان بها ، وإلا فالقتال ..ورسم لهم دستور القتال والحرب فى الإسلام فى كلمات بليغة موجزة ..

[لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً ولا فانيا ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناء] .

ومضى الجيش ليواجه مائة ألف من الروم ومعهم مائة ألف من حلفائهم .. وعند مؤتة التقى الجمعان ، غير المتكافئين .. وكان أن

استشهد زيد بن حارثة وتولى من بعده جعفر بن أبى طـــالب ، وقــد تكاثر عليه الأعداء فبتروا يمينه ، فحمل اللواء بيساره ، ولما قطعوها رفعه بين ساقيه إلى أن لقى ربه .. وجاء من بعده عبد الله بن رواحة ليلقى نفس المصير .

كان لا بد من اختيار قائد جديد لقوات المسلمين ، وهنا اتجـــهت الأنظار إلى خالد بن الوليد ، الذى قبل تحمل المسئولية فى لحظة مـــن أخطر لحظات المعركة ، إذ تكاثر الأعداء علـــى المســلمين بقصــد إفنائهم ، فصمد أمامهم خالد صموداً رائعاً على مدى النهار ليوهمـــهم أنه لن ينسحب من الميدان ، وأنه سوف يستمر فى القتـــال .. وبقـــى يقاتل إلى أن حل الظلام .. وأثناء الليل أجـــرى تعديـــلات واســعة النطاق فى قواته : نقل الميمنة إلى الميسرة ، والميسرة إلى الميمنـة ، وأتى بمن كانوا فى مقدمة قلب الجيش إلى الوراء ، وجـــاء بـــآخرين من الوراء إلى المقدمة ، وأمر خالد عدداً من رجالـــــه أن ينســحبوا وراء الصفوف فى خط طويل يمتد ما أمكنه الامتداد ، ووزع عليـــهم أبواقاً وأدوات حرب تحدث ضجيجاً عالياً ، وأمرهم إذا كان الصبـــح أن يقرعوا طبولهم وأن ينفخوا أبواقهم وأن يسوقوا خيلهم فى دوائـــر ضيقة ولكن فى سرعة عاصفة تثير الغبار الكثيف وأن يطلقـــوا مـــن حناجرهم أصواتاً عالية ، تؤكد أنهم علـــى وشـــك الظفـــر بعدوهـــم " الروم" وعندما نشب القتال من جديد تصور الروم أن مدداً كبيراً قـد وصل ، إذ اختلفت الوجوه التى تحاربهم ، وقاتل خالد قتالاً مريـــراً ،

وأبدى من البراعة ما أذهل الروم .. وقالوا إن تسعة سيوف قد تكسرت فى يده ، ولم يتبق إلا سيف يمانى ، قاطع باتر ، قاتل به إلى أن حل المساء من جديد .. وكانت معركة النهار هذه خير غطاء للجيش لكى ينسحب ليلاً ويرجع قافلاً إلى المدينة فى سلام بعد أن خسر قادته الثلاثة ، وبعضاً من جنوده لكن الأغلبية نجحت فى العودة من حيث أتت ..

واستقبلت المدينة جنودها أسوأ استقبال فما كان فى تصورهم أن يعودوا بلا نصر وراحوا يعيرونهم :

ــ الفرار .. الفرار ..

أى أنهم قد فروا من المعركة ، وما كان أهل المدينة يعرفون أن جند هرقل من الروم والقبائل يتجاوز مائتى ألف .. صمد فى مواجهتهم ثلاثة آلاف ' كان المفروض أن يفنوا جميعاً ، واستطاع خالد بخطته الجريئة الذكية أن ينقذ جيشه ، ويعود به .. وكانت كلمة الفرار قاسية على المقاتلين الأبطال ، وقد رد الرسول صلوات الله وسلامه عليه للجند اعتبارهم ونفى عنهم تهمة الفرار ، وقال :

ــ إنهم الكُرَّارُ بإذن الله ، وليسوا الفُرَّارُ ..

وتقبل أهل المدينة الأمر على أنه " قضاء الله " ، وارتضوا بكلمة " الكرار " يرددونها ، إذ الحرب " فر " و " كر " ولعلها نبوءة كبيرة تلك التى قال بها الرسولﷺ إذ أن المستقبل كان يحمل مفاجأة ضخمة " يكر " فيها خالد على الروم ..

ولقد كان لنجاح خالد بالعودة بجيشه سليماً أثـره الكبير ، وإذا برسول الله ﷺ يضفى عليه لقب " سيف الله " ولا شك أنـها كانت نبوءة أخرى ، فما فعله خالد حتى ذلك اليوم لم يكن ليستحق عليه هذا اللقب الكبير ، وكأنما كان الرسول ﷺ يمنحـه إيـاه علـى أعمـال سينهض بها فى السنين التالية ..

ـ٢ـ

بنو جذيمة

كان " بنو جذيمة " من أشرار الكفار أيام الجاهلية ، حتـى لقـد أطلق عليهم الناس " لَعَقَةُ الدم " وقد استشرى أمرهم ، وكـان لابـد من دعوتهم إلى الإسلام ، وترك عبادة الأصنام .. خاصة وقد سـبق لهم أن قتلوا " الفاكه بن المغيرة " ، وشقيقه كما قتلوا والد الصحـابى الجليل عبد الرحمن بن عوف ، وأجهزوا على مـالك بـن الشـريد وإخوته الثلاثة من بنى سليم ، لذلك كان لابد وأن يبعث إليهم الرسول ﷺ بمن يقدر على اتقاء شرهم ومكيدتهم .. وقد اختار لهم خالد بـن الوليد فى ثلاثمائة من الفرسان المهاجرين والأنصـار ومـن بنـى سليم ..

وعندما علم بنو سليم بأمر خالد وجنوده استعدوا القتال ولبسـوا الدروع ، وحملوا السيوف ، وامتطوا صـهوات الخيـل .. وعندمـا وصل فرسان المسلمين عند مضارب خيامهم سألهم :

ـــ هل أنتم مسلمون ؟

قال البعض : نعم ..

وقال آخرون : لقد تركنا عبادة الأصنام ..

تطلع إليهم خالد ، وسأل فى حدة :

ـــ لماذا كل هذا السلاح ؟ ولم تجهزتم للحرب ؟

قالوا : لنا أعداء ، وخشينا قدومهم إلينا ..

قال : ضعوا السلاح ، فقد أسلم الناس وساد السلام ..

تبادل بنو جذيمة النظرات ، وتطلع بعضهم إلى بعض فى قلق ، وهم لا يدرون ما يفعلون ، وارتفع من بينهم فى هذه اللحظة صوت يقول :

ـــ ويلكم ! .. إنه خالد بن الوليد .. والله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلاّ ضرب الأعناق .. والله لا أضع سلاحى أبداً ..

ونشب القتال عند " الغميصاء " ، واستمر حتى قرب غروب الشمس ، وبدأ بنو جذيمة يتراجعون ، وكان فى آخر صفوفهم شاب على فرسه لحق به خالد ، ووضع رمحه بين كتفيه ، فهتف الشاب ..

ـــ لا إله ..

وهنا قبض خالد عنه الرمح ، وإذا بالفتى يكمل كلماته ..

ـــ لا إله إلاّ اللات ، أحسنت أو أساءت ..!

ودفع خالد بالرمح فى ظهره ولم يجهز عليه ، بل أصابه وأخذه

أسيراً .. ودليلاً على أن القوم مازالوا كافرين مشركين بالله ، وهو يعلم عن يقين أنهم أشرار .. فأعمل فيهم سيفه رغم معارضة المهاجرين والأنصار .. وعندما علم الرسول ﷺ بما حدث قال :

ـ اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ..

وبعث الرسول ﷺ على بن أبى طالب يسترضى بنى جذيمة ويدفع دية قتلاهم ، فلما اكتفوا فرق بينهم بقية المال ..

ـ٣ـ

حنين

بدأت القبائل من حول مكة تتجمع بعد أن أسلمت نفسها للرسول ، إذ خشيت هذه القبائل أن يغزوها المسلمون بعد أن فرغوا من أمر قريش ، والكعبة .. وأعد الأعراب جنودهم وأسلحتهم لقتال المسلمين قبل أن يغزوهم فى عقر دارهم ، فنظموا أنفسهم : الفرسان ثم المشاة ثم الإبل وعليها النساء والأطفال ، ومن ورائهم الغنم لكى يقاتلوا من أجلها ، وأصر قائدهم مالك بن عوف على ذلك الترتيب عندما عارضه البعض ، بل لقد هددهم قائلاً ..

ـ إما أن تطيعونى وإما أن أتكىء على سيفى ليخرج من ظهرى !

وعندما علم الرسول ﷺ بأمر " هوازن " خرج إليهم فى نحو عشرة آلاف من المسلمين ، بعضهم قريب عهد بالإسلام ، وأسند قيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد ليعلن عليه الصلاة والسلام عن

رضاه عنه ، وثقته فيه .. وكان عدد المسلمين كبيراً وهم يزحفـــون إلى حنين ، وقد أعجبتهم كثرتهم واستهانوا بعدوهم الذى ســبق إلـــى المكان وهيأ المسرح للقتال ، ودبر كميناً من المشركين يضم أبـــرع الرماة ، واختفوا ليفاجئوا المسلمين ، وليهاجموا الفرسان فى ضراوة ، فاضطرت للتراجع مولية هاربة ، وقد انزعجت ، وخافت ، وجفلت ، لذلك اختلط الحابل بالنابل .. وظنت " هوازن " أنـــها قـد انتصـــرت انتصارا حاسما ، فاهتمت بالغنائم والأسلاب ، وكان من الممكـــن أن يلقى المسلمون هزيمة ساحقة لولا أن الرسول ﷺ تقدم الصفوف ومن حوله نفر قليل من المؤمنين ، صمدوا وثبتـــوا ، والرســـول يصـــول ويجول ، ويقول ..

أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب**

وعندما جلجل صوت النبى تجاوب معه الأنصار والمــــهاجرون وعادوا يهتفون : لبيك .. لبيك .. وتجمع المســـلمون مـــن جديـــد ، وراحوا يقاتلون فى ضراوة وعنف من أجل النصر ، حتى إن أم أنس ابن مالك حملت خنجرها وهى حامل فى طفلها لكى تقاتل دفاعاً عـــن نفسها .. وظل خالد بن الوليد يعمل سيفه فيهم إلى أن سقط من فـــوق حصانه وقد أصيب بجراح عدة .. وبين الجرحى بعد المعركة عـــثر عليه الرسول ﷺ فأخذ بيده وأمر بأن يحمل إلى خيمة رفيـــدة بنـــت سعيد ــ أول ممرضة فى تاريخ الدنيا ــ لكى تسعفه .. وتردد النبـــى

على خالد ، وزاره أكثر من مرة لكى يطمئن عليه ، إلى أن شفى .. وكان مما عجل شفاءه أنه علم بأن المسلمين قد استطاعوا أن يحتملوا الصدمة الأولى ، وأن يعاودوا القتال فى استبسال ، إلى أن تمكنوا من أعدائهم ، وانتصروا عليهم انتصاراً كبيراً .. وقد لاذت القبائل بعد هروبها بمدينة الطائف ، ذات الأسوار العالية .. ومضى إليهم الرسول ﷺ يحاصرهم ، وبرز إليهم خالد يتحداهم ويطلب النزال والمبارزة لكن زعيمهم رد عليه ..

ــ لن ننازلك ، فنحن نقيم فى حصن حصين ولدينا من الطعام ما يكفينا سنين ، فإذا استمر حصاركم لنا خرجنا إليكم بسيوفنا حتى نموت جميعاً ..

وقد حاول المسلمون أن ينفذوا إليهم ، وأن يجدوا ثغرة فى الحصن ، كما قطعوا نخيلهم وخربوا كرومهم .. وغادروهم بعد أن غنموا منهم الكثير ووزع الرسول الغنائم على المسلمين لكن بعضهم لم يرض عن نصيبه ، وقال إن القسمة ليست عادلة فانتفض خالد يريد أن يقتله ، لكن الرسول ﷺ قال :

ــ لعله أن يكون يصلى .

قال خالد : وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس بقلبه !

قال الرسول : إنى لم أومر أن أنقب فى قلوب الناس .

الداعيـــة

ــ١ــ

نجـــران

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون نجران ..وهم قوم ذوو بــأس عظيم ، ما خاضوا حرباً إلا وانتصروا فيها ، إذ كانت تجمعهم وحـدة الرأى والكلمة ، يعـتزون بماضيـــهم كـل الاعـــتزاز ، ويفخـــرون بحاضرهم أيما فخر ، وظلوا على دين آبائهم إلى ما بعد فتح مكة ..

بعث الرسول ﷺ بكتيبة يقودها خالد بن الوليد إلـــى نجــران ، وأمره بأن يدعوهم إلى الإسلام على مدى ثلاثة أيام ، فإن اســـتجابوا قبل منهم ذلك ، أما إذا رفضوا فله أن يقاتلهم ..

ومضى خالد إليهم ، وكانت بنو حذيفة فى ذاكرتـــه ومخيلتــه ، لهذا راح يدبر للأمر فى حنكة وذكاء ن فأرسل بعضاً مـــن رجالــه إليهم يبشرونهم بالدين الجديد ، ويحدثونهم عما جاء به من الســماء ، وكيف ساوى بين الناس ، ورفع من شأن المستضعفين فــى الأرض ، كما شرحوا لهم كيف يعبدون الله الذى لا إله إلا هو وكيف يصلون له .. وحذرهم رسل خالد من المقاومة والقتال ، فـــإن ســيف الله فـــى الطريق إليهم إذا هم لم يستجيبوا ..

وتداول بنو الحارث فيما بينهم ، وانتصـــرت وحـــدة الكلمـــة ، وساد صوت العقل ، وإذا بهم يستجيبون للدعوة الكريمة ، ويحســنون

استقبال خالد وفرسانه ، ويقررون إيفاد جماعة منهم إلـــى النبـــى ﷺ ليسلموا على يديه .. وعندما قدموا ورآهم عليه الصلاة والسلام سأل .

ــ من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال من الهند ؟

قيل : هؤلاء ــ يا رسول الله ــ رجال بنى الحارث بن كعب ..

وتقدم الرجال ليلقوا بالسلام ، وينطقوا بالشهادتين ، فقال ﷺ :

ــ أنتم الذين إذا زجروا استقدموا ؟!

وأعادها الرسول على مسامعهم ثلاث مرات وهم لا يجيبون ، وأخيراً رد زعيمهم :

ــ نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدموا ..

وكررها أربع مرات ، فقال عليه الصلاة والسلام ..

ــ لو أن خالداً لم يكتب لى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوســـكم تحت أقدامكم !

وإذا بزعيمهم يقول فى حدة ..

ــ أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً ..

قال الرسول ﷺ

ــ فمن حمدتم ؟!

قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله ﷺ ..

قال : صدقتم : ثم سألهم عليه الصلاة والسلام : بم كنتم تغلبـــون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : كنا نغلب من قاتلنا ــ يا رســـول الله ــ أنا كنا نجتمع ولا نتفرق . ولا نبدأ أحداً بظلم !

وعندما عادوا إلى مضارب خيام قبيلتهم أرسل إليهم النبىﷺ من يعلمهم أمور دينهم ويفقههم الإسلام ، ويجمع منهم الزكاة والصدقة ..

ـ ٢ ـ

فى اليمـــن

بدأ الإسلام ينتشر فى شبه الجزيرة العربية بعـد فتـح مكـة ، وكان لابد من أن يفكر المسلمون فى اليمن : أرض سـبأ ومـأرب ، والحضارة القديمة ، وبناة السدود ، وكانوا أصحاب جنات وزروع .. واليمن من قديم الزمن على صلة بمكة والمدينة ، ورحلة الشتاء كانت على مر السنين تمضى إليها ، وكان أهلها يشهدون سـوق عكـاظ : للشعر والتجارة .. وهم قوم ذو ذكاء وشكيمة ، لذلك لابد وأن يختـار لهم رسول الله ﷺ شخصية مرموقة تعرض عليهم الإسلام ، وتشـرح لهم مبادئه وأسسه ، لكى يؤمنوا ويسـلموا .. وكـان أن اختـارﷺ خالد بن الوليد لهذه المهمة الجليلة الشأن العظيمة القدر ..

مضى خالد إلى بنى مراد ، وزبيد ، ومذحج باليمن يدعوهم إلـى الإيمان بالله ، ورسوله وكتابه ، ويحدثهم عن أمور الدين الجديد الـذى نزل من السماء إلى الأرض ليضئ أرجاءها ، ويزرع فيها الخـير ، ويجتث الشر .. وقد مكث خالد بينهم شهوراً عدة ..

ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يريد مـن ذلـك أن يدرب خالد بن الوليد على أمور الدعوة ، ولكى يتفرغ هناك للتفقه فى أمور الدين على يد رفاقه من صحابة الرسولﷺ بجانب أن " عمـرو

ابن معد يكرب " ــ بطل زبيد ــ كان فى ذلك الحين مرهوب الجانب ، ذائع الصيت ، تتغنى شبه الجزيرة بقوته وشجاعته وبطولته ، وكــان لابد لليمن من بطل يضاهيه شهرة وفتوة وصيتاً ، ويجعله يقلل مــن سطوته ، ويحول بينه وبين معاداة المسلمين ، والانقضاض عليــهم .. ومن الواضح أن خالد بن الوليد قد نجح فى كف أذى عمرو ، وأنــه بوجوده قد تصدى له ، وألزمه أن يبقى حيــث هــو فــى مكانــه ، لا يتجاوزه ولا يمضى أبعد منه .. كانت بعثة خالد إلى اليمن بمثابــة رسالة صامتة ، حققت أهدافها .. فقد آمن البعض بدين الله ، وجــاء على بن أبى طالب لكى يكمل المهمة على خير وجه ، واســتطاع أن ينهض بالمهمة ، وأسلم أهل اليمن ، وحســن إســلامهم علــى أيــام الرسول .. وهم لم ينسوا بعثة خالد إليهم إذ ما من أحد يعرف قيمــة البطل كالأبطال ، وقد عاشوا عمرهم كله مناضلين أقوياء ، كــافحوا امبراطورية الأحباش طويلاً وقاوموهم بعنف ، والتاريخ يذكــر فــى هذا المقام (سيف بن ذى يزين) ، ولا ينسى أبرهة وكعبته التى لــم يحج إليها الناس ، وجيشه الزاحف على مكة يبغى بيت الله الحــرام ، وتساقطت على هذا الجند حجارة من سجيل ، حين أرسل الله عليــهم طيراً أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .. وعندما قاد خــالد جيــوش المسلمين بعد ذلك كان من بينهم كثيرون من أبناء اليمن الذين التقــى بهم فى بعثته إليهم يهديهم إلى الصراط المستقيم ، وقد أخذ بهم فــى حروبه إلى الفتح العظيم ..

تبــــوك

في العام التاسع للهجرة خرج رسول الله ﷺ إلى حدود الـــروم في جيش كبير ، كان من بين قواده وفرسانه ســـيف الله خـــالد بـــن الوليد .. وقد أراد المسلمون بهذه الغزوة أن يستكملوا ما بـــدأوه فـــي " مؤتة " ، ولم يكن التوفيق حليفهم ، لذلك تجهزوا من جديد لـــيردوا عنهم الروم وقد تجمعوا في الشمال يهددون شبه الجزيرة ..

وكان الوقت صيفاً ، والحر شديداً ، والرحلة صعبـــة قاســـية ، والعدو قوي كثيف ، لكن ذلك لم يحل بين المؤمنين وبين الانضمـــام إلى الجيش المقاتل ، والذي ما إن وصل إلى " تبوك " حتى وجـــد أن الروم قد انسحبوا ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ..

وقد أمر الرسولﷺ خالد بن الوليد أن يمضـــــي إلـــى " دومـــة الجندل " ، وهو مكان وسط ما بين الحجاز والعراق والشام ، ويتحكـــم في طرق القوافل بينها ، وأميره " أكيدر " واحد من أعوان الـــروم ، ويخشى منه أن يساعدهم إذا هم فكروا في غزو شبه الجزيرة ، كمـــا أنه كان ينقل إليهم أخبار ما يحدث هناك .

عاد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة بعد أن أمن الحـــدود مـــن الغزاة ، بينما انطلق خالد في خمسمائة فارس إلى " دومة الجندل " .. وبعث بطلائعه إليها كما نصحه الرسول ، وكما تعود هو كقائد لابـــد له من تسقط المعلومات عن الاعداء الذين سيخوض معهم المعركة ..

وكان الرسول ﷺ قد أبلغه أن " أكيدر " هذا من هواة صيد بقــر الوحش ، وعادت الطلائع لتنقل إلى خالد أن الأمير قد خرج في تلــك الليلة المقمرة مع شقيقه في رحلة صيد ، فما كان من القــائد الذكــي إلا أن انتظرهما في طريق العودة إلى قلعته ، وبعد قتال قصير لقــي فيها شقيق الأمير مصرعه ، تمكن خالد من صيــد الصــائد وأســر " أكيدر " ومضى إلى القلعة يحاصرها ، ويعلن لأهلها أن أميرهم بين يديه ، وأنه سوف يجهز عليه إذا هم لم يستسلموا .. ففتحــت القلعــة أبوابها للقائد المنتصر الذي لم يرق قطرة واحدة من دمـــاء جنــده ، وعاد بهم إلى قواعدهم في المدينة سالمين غانمين كل ما في القلعة .. إذ ساق خالد منها ألفي بعير ، وثمانمائـــة شــاة وأربعمائــة درع ، وخمسمائة جوال ملئ بالقمح والشعير .. وحمل خالد معــه الأســير " أكيدر " ، ولحق بالرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة ..

وقد التقى الرسول بالأمير الأسير ، وخيره بين الإســلام وبيــن الجزية ، فأسلم الرجل ، وأصبح حليفاً للرسول الذي أمــن بذلــك أن تكون قلعة دومة الجندل للمسلمين ، تحرس مفارق الطرق مــا بيــن الجزيرة والعراق والشام ..

وأضيفت معركة جديدة إلى قائمة المعارك التي انتصــر فيــها سيف الله ، ذلك القائد الذي لم يهزم قط .

حــروب الــردة

ـ ١ ـ

" بنو أســد "

انتقل الرسول ﷺ إلى رحاب الله ، وجنة الخلـد ، وإذا ببعـض القبائل تمتنع عن دفع الزكاة ، والبعض الآخر يرتد عن الإســلام .. وكانت الفترة حرجة : جيش أسامة يستعد للمضى إلى الشمال لقتـال الروم ، وسيره أبو بكر ـ خليفة الرسول ـ تنفيـذاً لوصيتـه عليـه الصلاة والسلام .. ورفض أبو بكر مصالحة مانعى الزكاة ، بل قـال فى حزم :

ـ والله لو منعونى عقال بعير ـ كانوا يعطونه لرسول الله ـ لقاتلتهم عليه !

وعندما زحف هؤلاء إلى المدينة ، تحصن أبو بكر والمسـلمون فى المسجد واسترخى الزاحفون ظناً منهم أن أحداً لا يتوقع قدومـهم ، وتناثروا فى طرقات المدينة إلى الصباح الذى لم يطلع عليهم أبـداً ، فقد تخلص منهم أبو بكر قبل أن تشرق الشمس .

وفى (ذى القعدة) عقد أبو بكر لواء القيادة لسيف الله خالد بـن الوليد ، على جيش يضم أربعة آلاف مقاتل ، وطلب إليه أن يزحـف على بنى أسد ، مروراً ببنى طىء .. وأشاع المسلمون ذلك ، فبقيـت طىء ـ قبيلة حاتم الطائى ـ فى مكانها ، ولم تنضم إلى بنـى أسـد

الذين انتظروا جيش خالد فى (بزاخة) ، حيث ماء لـــهم ، والأرض فيه سهلة صالحة للقتال .. وكان قائدهم طلحة بن خويلد قد أعلن أنـــه نبى ، ورفع راية حمراء التف من حولها ..

مضى خالد والجميع يتصورون أنه فى طريقه إلى قبيلة طـــيء ، وإذا به فى منتصف الطريق ينعطف تجاه بنى أســـد ، الذيـــن كـــان يرصدون ما حولهم ، ويستعدون لكل مفاجأة ، وكان جيشهم كبـــيراً ، ولم يقطع مسافة طويلة مثل جيش المسلمين ، كما أن طلحة كانت لـــه خبرة بالأرض والمكان كبيرة ، وعندما نشب القتال صمد بنو أســـد ، بل هاجموا المسلمين بعنف وقوة ، فتراجعت الميمنة قليـــلاً ، ومـــن ورائها الميسرة .. واقترح البعض أن يعتصم خالد وجيشه بـــالجبل ، ويرد عليه سيف الله ..

ــ لن أعتصم بغير الله ..

وقفز خالد من فوق فرسه ، وبدأ يقاتل وقوفاً علـــى قدميـــن ، وهـــو يهتف :

ــ يا أنصار الله ..

واندفع الصحابة والمسلمون بقـــوة وعنـــف يحمـــون قـــائدهم ، ويقاتلون إلى جانبه ، حتى استطاعوا أن يفنوا أربعين من الفرســـان ، كانوا هم حرس طليحة ، الذى مضى إلى الوراء وقد التـــف بـــرداء الكهانة ينتظر " الوحى " ! ، أو مدد السماء .. ولم يأت أبـــدا ، لكـــن الذى أتى هو سيف الله ، سيف خالد والمسلمين معه ، وتمكنـــوا مـــن

الإطاحة بكل جيش طليحة ، الذى وثب فوق حصانه ، وأردف زوجه وراءه وصاح :
ــ من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله ، فليفعل !
وانتهت المعركة بهزيمة بنى أسد ، وغنم المسلمون الكثير ، وعاد عدد منهم يعلنون توبتهم ويجددون إسلامهم ، وبعث خالد ببعض من جنده يطاردون الهاربين ..
وعلم خالد أن جماعة منهم انطلقت إلى " ظفر " حيث جمعتهم (سلمى أم زمل) من حولها ، وأنها شجعتهم على مواصلة القتال ، ووقفت على جملها تثيرهم .. فانطلق إليها المسلمون ، وعقروا جملها بعد أن قاتلوا حراسها وأفنوهم عن آخرهم .. وبذلك تم النصر على بنى أسد ، وانتهت حكاية طلحة بن خويلد ..

ــ٢ــ

بنو تميم

مضى خالد بن الوليد ــ دون انتظار أوامر المدينة ــ بقواته إلى البطاح ، حيث يقيم بنو تميم .. وعارض الأنصار ذلك ، فمضوا إلى طريق العودة ، لكنهم ندموا على ذلك إذ خشوا أن تصيب المسلمين مصيبة فيلامون عليها ، أو يفوتهم نصر وعد الله به المؤمنين ، فلحقوا بخالد وجيشه ..

كان بنو تميم ، قبيلة كثيرة العدد ، قوية منيعة ، غنية ثرية ، أراضيها خصيبة ، ولديها مراعٍ واسعة شاسعة ..وهم قبل الإسلام هاجموا قبيلة تابعة لفارس ، ويحرسها بنو حنيفة ، واشتد الغضب بكسرى ، لكن حلفاءه من بنى حنيفة قالوا له إن من الصعب قتال بنى تميم ، وفضلوا على ذلك أن يحبس عنهم معونته لعام كامل ، وفى السنة التالية يقيمون لهم سوقا يستدرجونهم به إلى حيث يمكن عقابهم وتأديبهم .. وقد كان ..

وقد كان الثراء والسعة والكثرة سبباً فى الفرقة ، وعدم توحد الكلمة ، بل تنافسوا وتنازعوا وتقاتلوا ، ولكنهم استجابوا للإسلام ، وكل منهم يخاف الآخر ، وتوزعت الرئاسات بينهم وكان مالك بن نويرة من زعمائهم ، وقد تميز بالظرف واللطف واللباقة فضلاً عن كرمه الذى يصل به إلى حد الإسراف ، وشجاعته التى تقترب من التهور .. وكان أن قصدته (سجاح) التى أعلنت نفسها " نبية " صاحبة رسالة ، وقد نجح فى التخلص منها ، وجعلها تمضى بعيداً عنه إلى قبائل أخرى تدعوهم للوحدة ، والإيمان بها ! ..

مضى خالد بن الوليد يجهز نفسه لقتال مالك ، فهو لم يؤدِّ الزكاة كما فعل بقية رؤساء بنى تميم ، وبدأت السرايا التى بعث بها خالد فى مناوشات معهم ، واستطاعت واحدة منها أن تأسر مالك بن نويرة ، وتلقى به فى الحبس .. وكانت الليلة باردة ، ونادى خالد الحراس قائلاً :

ــ ادفئوا أسراكم !

وكان يعنى بذلك أن يوقدوا النار للتدفئة ، غير أن للعبارة معنى آخر فى لهجة الحراس ــ وهم من كنانة ــ إذ كانت تعنى " اقتلوا أسراكم " .. فقتلهم الحراس .. وكان مالك بن نويرة من بين القتلى ، وتزوج خالد بن الوليد من أرملته ليلى ــ أم تميم ــ وكانت من أجمل نساء العرب ..

وقد غضب كثيرون لذلك ، وعلم أبو بكر وعمر بالأمر ، فبعث الخليفة إلى خالد يستدعيه إلى المدينة ، فوصل إلى المسجد على راحلته ، وصدأ من حديد الدروع فوق ثيابه ، وعلى رأسه عمامة كبيرة رشق فيها عدة أسهم من يمين وشمال ، ومن الخلف أيضاً .. وهى أسهم كانت تستعمل فى الحروب القديمة لإصابة الأهداف البعيدة ..

اشرأبت أعناق الناس ، وهتفت :

ــ إنه خالد بن الوليد !

كان مفروضا أن يكون على رأس جيش إلى اليمامة ليحطم أقوى معاقل المرتدين فإذا هو فى المدينة .. وفجأة هب عمر بن الخطاب واقفا ، وجرى إلى حيث خالد ، وانتزع السهام من عمامته فى عنف وحدة ، وراح يحطمها بين يديه كأنها أعواد الحطب .. وارتفع صوت عمر يقول فى قسوة :

ــ والله لأرجمنك .. لقد قتلت امرأ مسلما !

هل تعود " مصارعة الطفولة "من جديد ؟! .. لقد كـــانت أيـــام الجاهلية ، لذلك اكتفى خالد بأن ابتعد عن عمر ، ومضى فى طريقـــه إلى حيث أبى بكر .. ودخل إليه ، وعنفه الخليفة ، واعتـــذر خـــالد ، وكان واضحاً أن أبا بكر قد قبل عذره ، وخرج خالد من لقائه منفـــرج الأسارير ، واتجه إلى راحلته وامتطاها ومضى بها إلى بنى حنيفــــة فى اليمامة !

ـ٣ـ

بنو حنيفة

كان بنو حنيفة يسكنون اليمامة ، وهى قرى مبنية على ســـفوح الجبال وفى الوديان ، وقد أقاموا دورهم بالحجـــارة ، ومـــن حولـــها أسوار منيعة ، بداخلها حدائق الفاكهة والنخيل .. إذاً المعركة معـــهم تختلف عن المعركة فى البادية .. وبنو حنيفة أقوياء ، وزعيمهم مسيلمة داهية ، قصير القامة ، أفطس الأنف ، قادر على إرضـــاء ســـامعيه وإقناعهم ، وعندما وفدت إليه " سجاح " ــ مدعية النبوة ــ تقرب إليها حتى شهدت بنبوته ، وتزوجت وانصرفت ببعض الهدايا ..

وقد وثق بنو حنيفة فى مسيلمة ، وأحبوه ، وأطاعوه ، خاصـــة وهو يتقن الكثير من أساليب السحر والشعوذة ، يجتذبهم بها ، حتـــى لقد بلغت قواته أربعين ألفا ، وقيل ستين ألفا .. إذ نجح فى مصالحـــة خصومه ومهادنة أعدائه ، وتفرغ للقاء المسلمين بقيادة ســـيف الله :

خالد ، الذى عبأ قواته بعد رحلة امتدت ألفين من الكيلومترات ذهاباً إلى المدينة وعودة منها ، وكان جيشه نحو ثمانية آلاف ، أى أنهم أقل من نصف جيش مسيلمة ، الذى استعد لقتال المسلمين ، وبعث ببعض فرسانه يستطلعون أخبار المسلمين لكن سيف الله كان لهم بالمرصاد وتمكن من إبادتهم وأبقى على قائدهم "مجاعة بن مرارة" أسيراً ..

وبدأ التحام الجيشين فى (غفرباء) ، وقاتلت بنو حنيفة بشراسة وعنف واندفعت فى هجومها حتى استطاعت أن تصل إلى خيمة خالد ابن الوليد ، وفيها " مجاعة " فأطلقوا سراحه ، وكادوا يقتلون ليلى ــ أم تميم ــ زوجة خالد لولا أن شفع لها " مجاعة " .. وحاول مسيلمة بقواته أن يجتاح جيش المسلمين ، ولكن سيف الله خالداً أعاد تنظيم قواته ، وميز الأنصار بأن جعل لهم راية حملها ثابت بن قيس ، وقد حفر لنفسه حفرةً فى الأرض ، ووقف فيها وهو يلف نفسه بكفنه ، حتى يستشهد حيث هو ، ولا يخطو للوراء خطوة .. وكانت هناك راية للمهاجرين ، وثالثة للأعراب ، ليعرف القائد من يثبت ويقاتل ، ومن يتراجع ويهرب .. وارتفعت صيحات المؤمنين :

ــ " وا محمداه "

ــ انقضوا يا أصحاب سورة البقرة ..

ــ قاتلوا يا أنصار الله ..

ولاحت تباشير النصر ، وبدأت قوات مسيلمة ترتد إلى الخلف

ـــ هم مرتدون ـــ وتابعتهم جيوش المسلمين ، فهرب مســـيلمة إلـــى حديقة من حولها سور ، له باب ضخم ، حاول أن يغلقـــه ، فصـــاح البراء بن مالك :

ـــ يا معشر المسلمين ، احملوني ، وألقوني من فوق سور الحديقة !

وحمله المسلمون على محفة ، ارتفعت بها أسنة الرماح ، حتى تمكـــن من أن يبلغ أعلى السور ، وقفز منه عليهم كالأســـد ، واســـتطاع أن يفتح الباب ليندفع منه المسلمون كالإعصار ، واستطاعوا في بســـالة أن يجهزوا على مسيلمة الكذاب وقادة جيوشه .. وكان كثـــيرون قـــد تدفقوا ليحتموا بالحديقة ، فأصبحت مقبرة لهم ، حتى إنـــهم أســـموها " حديقة الموت " ، وبلغ عدد القتلى قرابة عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين بضعة مئات .. لكن النصر كان حليفـــهم ، وحـــاولوا بعـــد المعركة أن يستولوا على كل حصون اليمامة .

واقترح " مجاعة " أن يمضي إلى تلك القـــلاع ليقنـــع رجالـــها بالاستسلام .. ولم يكن فيها غير النساء والأطفال وقد ألبسهم مجاعـــة الدروع ليبدوا كالمقاتلين ، وآثر خالد أن يسالمهم علـــى أن يســـلموا وعلى أن يدفعوا ربع ما يملكون ، فقبلوا ذلك .. وفتحوا الحصـــون ، وإذا بالمسلمين أمام مفاجأة : إنه ليس هناك مقاتلون ، وغضب خالد ، وصاح في مجاعة :

ـــ خدعتني ؟

رد " مجاعة " : إنهم قومى !

ويبتسم القائد المنتصر ، ويسامحه ، لأنه يقدر الشـــجاعة والدهـــاء وحماسة المرء لقومه وأهله ..

***

وبهذه المعارك انتهت حروب الردة ، واستطاع سيف الله أن يرد كيد المرتدين ، وأن يهزمهم شر هزيمة ، لتعلو راية الإسلام وتخفـــق على كل أرجاء جزيرة العرب ..

الفـــرس

ـــ ١ ـــ

ذو قـــار

كان للعرب مع الفرس موقعة قديمة وقعت أيـــام رســـول الله عليـــه الصلاة والسلام .. اسمها " ذو قـــار " وقـــد وصفـــها أبـــو الفـــرج الأصفهانى صاحب الأغانى وصفاً رائعاً ، وقال إنها وقعت ما بيـــن غزوتى بدر وأحد وكانت أنباء ظهور الإسلام قد أزعجت كســـرى ، وأقلقته ، لذلك رغب فى إثارة المتاعب للمؤمنين بدين الله : الإسلام .. والمعروف أن الفرس كانوا من عُباد النار .. وقد عبأ العرب قواتـــهم صفوفاً وقسموها إلى كتائب ، وجعلوا الميمنة ــ أى الجيـــش الـــذى يقف إلى اليمين ــ من قبيلة بنى عجل .. والميســـرة ــ أى الجيـــش الذى يقاتل فى اليسار ــ من قبيلة بنى شيبان .. أما القلب فكان مـــن قبائل بنى بكر بن وائل وقد جعلوا حملة السيوف والرماح فى الوراء ، ليحموهم بقلوبهم ، وهو بمثابة القاعدة التى يتم تموين الجيش منها فى يومنا هذا ومده بالمقاتلين والذخيرة والطعام .. وكان من أساليبهم أنهم لا يقدمون الصفوف للقتال دفعة واحـــدة ، لكـــى لا تصيبـــهم ســـهام الأعداء ، فتفتك بهم ، لكنهم كانوا يزحفون فـــرادى ، ومـــن أمـــاكن متناثرة كطلائع تهاجم ببسالة قوات الأعداء .. وإذا ما تقـــدم هـــؤلاء أطبقت عليهم قوات الميمنة والميسرة .. ولم تكن موقعة " ذى قـــار "

كبيرة لكنها كانت محاولة من الفرس لتخويف العرب . خاصـــة وأن كسرى " برويز " حين وصله كتاب الرسول ﷺ يدعـــوه فيـــه إلـــى الإسلام مزّق الرسالة وكتب إلى عامله على اليمن ــ أى حاكمـــها ــ أن يبعث باثنين من الرجال الأقوياء إلى الحجاز ليحضروا لـــه هـــذا الرجل الذى يقول إنه نبى ، وأن يحملا الرسول ــ صلوات الله عليـــه وسلامه ..

وذهب مبعوثا كســـرى لأداء المهمـــة فاســـتقبلهما رســـول الله بالترحاب ، وتلطف معهما فى الحديث وشرح لهما دعوة الإســـلام ، وفى تلك الأثناء جاءت الأنباء من فارس أن ابن أبرويز ثـــار علـــى أبيه ، وخلعه من العرش وتولى مكانه ،ولم يكتف بذلك ، بل تخلـــص منه ومن ثمانية عشر أخاً له لكى ينفرد بـــالحكم .. وعندمـــا تحقـــق الرجلان من ذلك الخبر أعلنا إسلامهما .

وسمع كسرى الجديد بما حدث ، وأراد أن ينتقـــم مـــن العـــرب والمسلمين ، فبعث إليهم بجيوشه ، فتصدوا لها ، فى شجاعة وبســـالة واستطاعوا أن ينزلوا بها الهزيمة ، ونجحوا فى ردها على أعقابـــها إلى أرض السواد أو العراق ..

وعندما وصلت أنباء النصر العربى على الفرس إلـــى مســـامع رسول الله ، قال ..

" إن هذا لأول يوم انتصفت فيه العرب من العجم .. وبى نصروا " !

ـ٢ـ

السباق

بعد وفاة الرسول ﷺ تولى أبو بكر الخلافة ، وبعث بالمثنى بن حارثة قائداً لقوات المسلمين لتأمين الجزيرة العربية من دسائس الفرس ومؤامراتهم وحماية العرب الذين استقروا فيما بين النهرين .. وانتصر المثنى ، لكن انتصاراته لم تكن بالحاسمة ، لذلك بعث الخليفة بجيش على رأسه سيف الله خالد بن الوليد وأمره بالزحف على فارس من الجنوب ، كما بعث بقائد آخر هو عياض بن غنم للزحف على الفرس من الشمال ، وعقد الخليفة سباقاً رائعاً بين القائدين : خالد يزحف على (الحيرة) ، وعياض يتجه إليها شرقاً من (دومة الجندل) ، والذى يسبق صاحبه إلى الحيرة يكون هو القائد ويصبح الآخر من جنده ..

وكانت فى الحيرة إمارة عربية ، قبل الإسلام ، واستطاع الأكاسرة أن يمدوا أذرعتهم الطويلة من بلادهم فى فارس لكى تقبض أيديهم على هذه الإمارة الحرة " الحيرة " وعلى عاصمتها التى كانت تحمل نفس الاسم .. ويذكر التاريخ أن واحداً من أمرائها العرب رفض أن يزوج ابنته من ولى لعرش كسرى وفارس .. وذلك على الرغم من أن حاكم الحيرة كان فى فترات طويلة يأتى من هناك ، إذ بسطت فارس نفوذها على الإمارة ..

والعرب كانوا فى تلك الفترة محاطين بامبراطوريـــات ثـــلاث : امبراطورية للأحباش فى اليمن والحبشة .. وامبراطورية للروم فـــى الشام ومصر .. وامبراطورية لفارس فى أرض الرافدين وفارس ..

وخرج العرب من جزيرتهم الصحراوية يرفعون أعلامهم ، ويحملون سيوفهم لكى يحطموا هذه الامبراطوريات ..

وكان من نصيب خالد بن الوليد أن بعث به الخليفة لكى يقـــاتل مع " المثنى بن حارثـــة " وجنـــوده الأبطـــال ضـــد عُبـــاد النـــار فى امبراطورية الفرس .

قسم خالد جنوده إلى ثلاث فرق ..

* **الفرقة الأولى** قائدها المثنى .. تنطلق فى البداية تجاه الفرس ..

* **الفرقة الثانية** قائدها عدى بن حاتم الطائى ، تمضى بعـــد الأولـــى بيوم ..

* **الفرقة الثالثة** على رأسها خالد نفسه تسير بعد الثانية بيوم ..

وكان أمير هذه المنطقة هو القائد هرمز .. وكانت له قلنسوة ثمنـــــها مائة ألف درهم .. أى إنه كان من أكبر القـــادة وقـــد بعـــث خـــالد إلى هرمز بإنذار يقول فيه :

" أما بعد ـــ ..

فأسلم تسلم ، أو اقبل الجزية ، وإلا .. فلا تلومن إلاَّ نفسك

ـ٣ـ

ذات السلاسل

ما إن تسلم هرمز الإنذار حتى أسرع يبلغ به الملك " أردشير " الذي أمر أن يربط جنوده بالسلاسل ، حتى لا يفكروا في الهروب من المعركة .. وأسرع الفرس يستولون على مصادر المياه ، وعندما نقل الجنود العرب إلى قائدهم خالد أنهم بلا ماء ، قال لهم ..

" هيا نقاتلهم من أجله .. إنه سيكون لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ".

وخرج " هرمز " من وسط جنوده ، إلى يمينه القائد قياذ وإلى يساره القائد الأشجان .. وصاح هرمز ..

ــ أين خالد ؟ فليبرز لي ، كي يبارزني .

وكان هرمز قد دبر مؤامرة لقتل خالد ، إذ أمر جماعة من جنده أن يتربصوا به ، وما إن يخرج من بين الجنود العرب حتى يهاجموه ويقتالوه .. وكان البطل العربي " القعقاع بن عمرو " يرقبهم كالصقر ، وتمهل خالد وهو ينزل من فوق حصانه ، وفجأة انقض على هرمز ، ووثب عليه كالأسد الهصور ، واستطاع في لمح البصر أن يقضي عليه .. وحين تحركت جماعة المؤامرة لم ينتظر القعقاع ، وقفز إليهم يشتت شملهم بسيفه البتار .. واندفع الأبطال العرب يقاتلون ببسالة منقطعة النظير ، وفي شجاعة لا مثيل لها .. واضطر الفرس إلى الهرب ، والفرسان المسلمون يطاردونهم إلى أن

حلَّ الظلام ، ولم يتركهم " المثنى " ، بل ظل يلاحقهم وهـم يفـرون مهزومين .. ولجأ بعضهم إلى قلعة على الطريـق كـانوا يسـمونها (حصن المرأة) ، وقد أمر المثنى شقيقه بمحاصرة هـذا الحصـن الذى تقيم فيه أميرة فارسية ، بينما حاصر المثنى بنفسه القلعة التـى أغلقها زوجها على نفسه ، وهاجمها بعنف إلى أن استسـلمت لـه .. فقضى على من فيها .. وعندما علمت الأميرة بمـا حـدث أمـرت جنودها بأن يفتحوا أبواب الحصن للعرب الذين أحسنوا معاملتـها .. فأسلمت وتزوجها شقيق المثنى !

وغنم العرب الكثير .. نال كل جندى ألف درهم .. غير الأسلحة واستولوا على حديد السلاسل الذى كان يزن الأطنان ، واستطاعوا أن يحولوه إلى سلاح يقاتلون به ضد الفرس فى معاركهم التالية ..

وما إن تحقق النصر حتى قسم خالد ما غنمه المسلمون ، وبعـث بجزء من خمسة أجزاء إلى الخليفة أبى بكر الصديـق فـى المدينـة المنورة ، أما الباقى فقد وزعه على المقاتلين الشجعان الذين خـاضوا المعركة ، وكان مما بعث به خالد إلى المدينة قلنسوة هرمز المحـلاة بالجواهر الثمينة وفيل ضخم استولى عليه العرب كغنيمة حـرب .. ولم يكن العرب قد شاهدوا فيلا من قبل ، إلا فيل أبرهة الحبشى الذى حاول أن يهدم به الكعبة فى ذات العام الذى ولد فيه الرسـول ﷺ .. وقد سارت الغنائم فى شوارع المدينة فى مظاهرة رائعـة .. كـانت معرض غنائم يتحرك ، والناس تتجمع من حوله تشهد هذا الحيـوان

الضخم الذى ليس لهم به سابق معرفة ، وقد سبقته الطبول تدق .. بل لقد أطلت النساء من وراء النوافذ تتطلع إلى هذه الأعجوبة ، وتجمع حوله الأطفال فى خوف ، ثم فى حذر .. وبعد قليل ألفوه ، وتجرأوا على الاقتراب منه ، والإحاطة به ، وكثر عددهم حتى صاروا جمعاً كبيراً .. وكان يقود الفيل عربى مسلم اسمه (زرّ بن كليب) ، والناس تنظر إليه فى إعجاب شديد .. بل لقد تصور البعض أنه من صناعة فارس ، وتصايح آخرون ..

ـ يا سبحان الله .. أَمَّنْ خلق الله هذا ؟

ولم يرض أبو بكر عن هذا الذى يجرى ، وضاق به .. فنادى قائده (زرّ) وأمره أن يعود بالفيل إلى العراق ، فقد يستعين به خالد فى الحرب إن كان يصلح لها .. ورغم عودة الفيل إلى خالد إلا أنه ظل لفترة طويلة حديث الأطفال والناس الذين شاهدوه ، ولم ينسوه قط ..

ولم يفت أبو بكر الصديق أن يرد إلى خالد " قلنسوة " هرمز التى كانوا يقدرون ثمنها بمائة ألف درهم .. فما كانت بهم حاجة بها فى المدينة المنورة .. حيث الزهد والتقوى ..

انتصـارات

ـ ١ ـ

السّبْـــق

لقى هرمز قائد الفرس مصرعه على يد البطل خالد بن الوليـد ، الذى حقق انتصاراً رائعاً فى معركة " ذات السلاسل " ، لكنه يعـرف أنهم يتربصون به وبجنوده ، ويريدون أن يثأروا لهزيمتهم ، خاصـة وقد تولى " أردشير " عرش كسرى وأعد جيشاً كبيراً ، استعان فيـه بالكثيرين من الأعراب الذين كانوا يعيشون فى هذه المنطقة ، وجعـل من " قارون " قائدا لهذا الجيش ، وانضم إليه " أبوشجان " و" قيـاذ " من بين قادة جيش هرمز المهزوم ..

وعند " ثنية " أو منحنى النهر عبر الفرس لملاقـاة العـرب الذيـن استعدوا لهم .. وترصد خالد وجنوده القادة الثلاثة ، وقتلوهـم .. وإذا بجيش الفرس يصبح فوضى ، وراح جنودهـم يـهربون والعـرب يتعقبونهم ، ويعملون فيهم السيوف .. وفرق كثيرون وهم يحـاولون عبور النهر ، متراجعين .. فى هذه الموقعة التى سـميت " الثنيـة " نسبة إلى ثنية النهر ، أو المذار نسبة للمكان الذى وقعت فيه ..

اشتد غضب اردشير لهذه الهزيمة ، فأعد جيشين لقتال العـرب المسلمين .. وتجمع الجيشان عند مكان اسمه (الولجة) ، وإذا بخـالد يضع خطة يهاجم فيها الأعداء من الجناحين ، ومن الخلف .. وتـأخر

هجوم هؤلاء ، خلال المعركة التى استبسل فيها العرب إلى أن انقض جنودهم وفق الخطة الموضوعة ، كالصاعقة ، وأبادوا الفرس الذين هربوا كالفئران .. حتى إن قائدهم هرب إلى الصحراء حيث مات عطشاً !

وتكرر استغاثة الفرس ببعض الأعراب فقاتلهم خالد فى عنف فى معركة اسمها (نهر الدم) لأن دم الأعداء سال كالنهر .. وقد كان خالد قاسياً عليهم كل القسوة ، لأنه رأى فى موقفهم خيانة لقومهم وقوميتهم .. وقد فاجأهم وهم يجلسون إلى موائد الطعام ، لم يفرغوا منه .. وعندما استولى عليها جند العرب وجدوا أمامهم رقائق الفطير ، فقالوا لهم : قد رأوها من قبل بل ظنها بعضهم (ورقاً) لونه أبيض ، فقالوا لهم :

ــ هذه رقائق الخبز ..

وسمى ذلك اللون من الخبز رقاقا إلى اليوم ..

بعث خالد بن الوليد إلى ملوك فارس ، وإلى كل مزربان فى مدينته رسالة ، وقال فى هذه الرسائل ..

" الحمد لله الذى حل نظامكم

ووهن كيدكم

وفرق كلمتكم

ولو لم يفعل ذلك بكم ، كان شرا لكم

فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم

ونجوزكم إلى غيركم
وإلا كان ذلك وأنتم كارهون .
على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة "
أما الجنود العرب فخاطبهم خالد بن الوليد قائلاً :
" لا تتعرضوا للفلاحين بسوء
دعوهم فى شغلهم آمنين
إلا أن يخرج بعضهم لقتالكم
فآنئذ قاتلوا المقاتلين "

ـ٢ـ

الأسطــــول

كان خالد يريد أن يصل إلى " الحيرة " فى سباقه مع " عياض " .. وبعث البطل بمن يأتيه بالأخبار فعادوا ليقولوا : هناك أسطول نــهرى كبير عند بلدة اسمها (أمغيشيا) ..

فكر خالد فى الاستيلاء على هذه السفن ليســـتخدمها فـــى فتـــح الحيرة ، لكن البلدة منيعة كما قالوا له .. لقد ابتسم البطل ، وهمـــس لنفسه ..

ـ ما من بلدة " منيعة " عليك يا خالد ..

ونادى الأبطال أن ازحفوا ، وارتجفت البلدة ، وإذا بأهلها يفرون منها تاركين كل شئ .. وكان الأسطول هو ما يريده خالد .. غير أنه

أدرك أنه إذا ما بقيت المدينة فسوف يعود أهلها إليـــها ، وســيكونون شوكة فى ظهره .. والحل أيها القائد العبقرى ؟ ..

فلنجعلها غير قابلة للسكنى ، ولا تصلح لكى يقيم فيها أحد .. وقد كان !

وعلمت الحيرة " بما حدث فاستعدت للدفاع عن نفسها .. كـــانت بها أربعة حصون قوية ، تحمى المدينة ، وسكانها ، وقد تجمع فيـــها الفرس وبعض الأعراب .. ورتبوا أنفسهم لمعركة طويلة ، يصمــدون فيها ، بل ويردون العرب المسلمين بعيدا .. وقد وجد خالد أن السـبيل إلى الحيرة هو أن يركب جنوده السفن فى نهر الفرات وينطلق بـــها شمالا إلى الحيرة ، لأن الصحراء شاسعة ، والطريق طويل .. طويل . ولعل العرب يستخدمون السفن فى نقل جنودهم لأول مرة ، وربمـــا كان هذا أول " أسطول " عربى فى تاريخهم . وكانت هذه هى البداية ، وبلغوا القيمة فيما بعد فى معركتهم البحرية " ذات الصوارى " بعـــد سنوات ..

سمع المرزبان ــ أى القائد والحاكم ــ " آزاذن " بأخبار جيـــش خالد بن الوليد ، وبأنه فى طريقه إلى الحيرة فى ســـفن تمـــر بنـــهر الفرات ، فما كان من المرزبان إلا أن أمر ابنه بـــأن يســـد القنـــاطر المقامة على نهر الفرات ، لتقل المياه فيه ، وتعجز السفن عن السير ..

كان الجو طيباً ، والريح تدفع بالسفن ومن فوقها الجنود العـــرب ينطلقون إلى الحيرة ، وفجأة جنحت هذه السفن ، وبدأت تصطدم بقاع

النهر ، وهذا يعنى أن الجنود العرب لن يكـــون فـــى مقدورهـــم أن يصلوا إلى هدفهم ولن يتمكنوا من قتال المرزبان وقواته ..

وفكر خالد بن الوليد فيما يجب عليـــه أن يصنعـــه .. وجاءتـــه الفكرة .. وترك سفينته ، وأخذ معه مجموعة من الأبطال ، وانطلقـــوا على ظهور الخيل ، إلى أن وصلوا إلى حيث يعسكر ابن المرزبـــان ، عند القناطر التى أغلقتها .. وفاجأه البطل خالد ، وهاجمـــهم بعنـــف ففروا هاربين . وفتح العرب القناطر ، وتدفقت المياه فـــى مجـــرى النهر ، وعادت السفن تبحر فيه من جديد ، حاملة الصناديق .. بينمـــا بقى خالد مع كتيبته يحرس القناطر حتـــى تظـــل الميـــاه منســـابة ، ووصلت السفن إلى " الخورنق " حيث نزل الجيش العربى ، واســـتعد لقتال الفرس ..

ـ٣ـ

الحـــيرة

استعد الجيش العربى الباسل بقيادة خالد بن الوليد لقتال الفـــرس .. وقسم البطل جيشه إلى أربع فرق ، مهمة كـــل فرقـــة أن تـــهاجم واحداً من الحصون ..

وكان المرزبان قد أعلن فى الحيرة أنه سيسحق سكان الصحـــراء القادمين إليه ، وأن المعركة لن تستغرق إلا لحظات .. لكن ابنه نقـــل إليه ما فعله به خالد بن الوليد حين هاجمه عند القناطر ، ومـــا كـــان

الابن يتصور أو يخطر فى باله أن العرب سيتنبهون إلى ما فعـــل ، فلا خبرة لهم بالأنهار والسفن ، بل ظن أنهم سوف يؤثرون الســلامة حين تتوقف مراكبهم فى الفرات ، وأنهم سيعودون من حيث أتـــوا ، لكن قدوم خالد إلى القناطر كان مفاجأة كبيرة ، هرب الابـــن علـــى أثرها لكى يبلغ أباه بما حدث ، وإذا بالمرزبان هو الذى يؤثر السلامة ويفضلها ، بما كان يدافع عن وطن أو دين ، بل كان كـــل همـــه أن يستمتع بالمال والسلطة ، ولذلك فرَّ هارباً ، تاركاً الحـــيرة وأهلـــها لمواجهة زحف الأبطال العرب .

وشعر أهل المدينة بالقلق الشديد ، وراحوا يتحصنون فى قـــلاع المدينة ، ويختفون وراء أسوارها استعداداً للدفاع عنها .. وكانت فـــى الحصون آلات ترســـل قذائـــف بعيـــدة المـــدى أســـماها القدمـــاء (الجزازيف) ..

وكان خالد ــ كعادته ــ قائداً إنساناً فـــأنذرهم .. وعندمـــا لـــم يستجيبوا لإنذاره أمر جنوده أن يحتموا بالأديرة ، ثم استولوا عليـــها ، وذعر الرهبان من هذا الزحف ، وإذا بالفرس يتساقطون كالذبـــاب .. وإذا بالصناديد العرب يقاتلون ببسالة منقطعة النظـــير ، وينتصـــرون انتصارات حاسمة ، وصرخ أهل البلدة يسألون البطل خالداً أن يكـــف عنهم جنوده .. فاستقبل زعماءهم الذين وصلوا للاتفاق على الصلح ..

ــ هل أنتم عرب أم عجم ؟! .. إن كنتم عرباً فما خوفكم منـــا ؟ وإذا كنتم من العجم فلماذا تخافون العدل والإنصاف ؟!

قالوا : نحن عرب عاربة . وأخرى متعربة . وها أنت ترى أنــه ليس لنا لسان إلا العربية

قال : كفوا من الحرب فقد أتيتكم برجال هم أحرص على الموت منكم على الحياة ..

وقبل أهل الحيرة دفع الجزية ، وكــانت مائــة وتســعين ألــف درهم .. وعقدوا معاهدة بذلك مع (خالد) .. وحملوا إليه الكثير مــن الهدايا الثمينة والغالية وتقديراً لسماحته ، فما كان منه إلا أن بعث بها إلى (المدينة) .. وعندما تلقاها أبو بكر الصديــق قبلــها علــى أن تخصم من الجزية ..

دخل خالد وجنوده الحيرة ، دخلوها مهللين مكــبرين ، ووقـف خالد إماماً للأبطال يصلى بهم صلاة الفتح .. إنــها ثمــان ركعــات متوالية لا يسلم فيها ، وعندما أتم الصلاة قال لأصحابه ..

ــ لقد قاتلت يوم مؤتة ، فانقطع فى يدى تسعة أســياف ، ومــا لقيت قوماً كمن لقيت اليوم !

واتخذ خالد من الحيرة مركزاً للقيادة .. وتــرك أمــور البلــدة لأهلها ، فشعروا بالأمن والاطمئنان وعملــوا علــى نشــر الــهدوء والسكينة فيها ، فأقبل كل سكان غرب الفرات علــى خــالد يعلنــون عروبتهم ويرضون بدفع الجزية كما فعل أهل الحــيرة .. وفرضــت عليهم عشرة آلاف دينار .. وأعلن الفاق الذى لا يهزم قــط أن هــذه

الجزية مقابل حمايتهم ضد الفرس ، وغير الفرس .. وأنه ملزم بردها إذا هو لم يدافع عنهم .. واشترط عليـــهم أن يكونـــوا عـــادلين فـــى جمعها ، فيأخذون من كل فرد حسب ما يملكه ، ولا يتقـــاضون مـــن الفقراء إلا أقل القليل أما كسرى وأتباعه فإنهم لم يقبلوا الصلح ، علـــى الرغم من أن سيطرة العرب امتدت حتى تجاوزت نهر دجلة .. وبقى خالد فى الحيرة ينظم جنوده ويعد قواته ويستعد لمعركة فاصلة مـــع هؤلاء الذين ظنوا أن فى مقدرتـــهم أن يقـــاتلوا الأبطـــال العـــرب ، وحسبوا أن امبراطوريتهم قادرة على الصمود فى وجه هذا الإيمـــان الزاحف عليها ، يجتث أطرافها .

وانتصـــارات

-١-

الفـــراض

انتصر خالد فى " الحيرة " ، وكان لذلك النصر فرحة كبيرة عند العرب ، فقد اشتهرت قبل الإسلام ، وعرفها الناس بلدة النعمان ، كما أنهم تناقلوا قصائد شاعرها الكبير : النابغة الذبيانى وغيره من أبنائها ..

ولم يقبل أبو بكر خليفة المسلمين من خالد أن ينطلق أبعد مما ذهب إليه ، فقد خشى كثافة جند الفرس ، وهو آمن بجنده فى أرض النهرين ، خاصة وقد انضم بعض المهزومين إلى الروم فى الشام ، وخاف أبو بكر من أن يزحف الروم عليهم ، فيصبح المسلمون بين نارين ، وعلى هذا فلا بدَّ من الاستيلاء على دومة الجندل قبل أن تمضى جيوش المسلمين نحو عاصمة فارس ..

وكان فى شمال العراق أرض يقال لها " الفراض " ، اجتمع فيها بعض عرب البادية ، ومعهم جيش من الروم ، وكاد الفرس أن ينضموا إليهم عندما وثب إليهم سيف الله فى هجمة مفاجئة ، زلزلت كيانهم .. وكان النهر ما بين جيش المسلمين وجيش الروم ، وقالوا لخالد :

ـــ إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم !

ورد الداهية : اعبروا أنتم إن شئتم ..

وعبرت جيوش الروم يساندها بعض أعـــراب الباديـــة ، ولـــم يتنبهوا إلى أنهم قد أصبحوا محصورين محـــاصرين : البحـــر مـــن ورائهم ، والمسلمون من أمامهم ، وما إن تم عبورهم حتى بدأ خـــالد في إرسال فرسانه إليهم ، يعزلونهم بعض عن بعـــض ، ويقطعـــون عليهم الطرق ، ويضيقون المسالك .. وما إن تحتدم المعركـــة حتـــى ينجح أبطال المسلمين في الإيقاع بهم ، وحصدهم حصداً ، وإبادتهم .. وأمن خالد بذلك جبهة الشمال

ولعلنا نتساءل :

ــ وأين عياض في كل ذلك ؟

ــ٢ــ

الجنـــــــدل

كان عياض مازال يقاتل في دومة الجندل .. وقد جـــاءت أوامـــر الخليفة إلى خالد أن يغيث جيش عياض ، ويعينه ، لذلك رأى خالد أن يسير شمالاً إلى كربلاء ليؤمن الحيرة وفيها مضى إلـــى " الأنبـــار " التي ضرب أهلها حولها خندقا عميقا .. ولم يكن لهم خـــبرة كبـــيرة بالحرب ، فأمر خالد جنوده أن يصوبوا سهامهم عبر الخنـــدق إلـــى عيون سكان البلدة ، فأصيب كثيرون منهم ، حتى تناقل الناس عبـــارة شهيرة تقول ..

ــ ذهبت عيون أهل الأنبار !

وقد أعلنوا عن رغبتهم فى الصلح ، لكن شروطهم لـــم تعجـب البطل خالدا .. فاقتحم الخندق بعد أن أقام عليه جسراً ..

واستسلمت المدينة فى هذه المعركة التى سميت (ذات العيون) .

مضى خالد ، وجيشه إلى حافة الصحـــراء ، مـرة أخـرى .. لم يتجه إلى فارس ، كان كالذى يرجع للوراء قليلاً ليقفز عبر حـاجز مرتفع ، أو حفرة عميقة .. وسار إلى (عين التمر) .. وكانت فـــى ذلك الوقت عاصمة بنى تغلب وإياد ، وقال أعـــراب هـذا المكـان لحلفائهم الفرس :

ــ اتركونا نقاتل العرب القادمين ..

العرب أعلم بقتال العرب !

وابتهج الفرس لذلك ، وتركوا (عقة) قائد القوم يواجه جيـــش البطل خالد .. وينتظرون هم نتيجة المعركة : إذا انتصر (عقة) فقد أراحهم من القتال ، وإذا ضعف تدخلوا لمساعدته ..

وتقدم خالد ..

وحين يتقدم خالد بجيشه ، فهو العاصفة التى تقتلع كل ما يقـــف فى طريقها .. وأنزل بجنود عقة هزيمة ساحقة ، واستطاع أن يأسـر (عقة) نفسه ، بينما بقى حصن (عين التمر) يقاوم .. أمر خـالد أن يضرب عنق (عقة) أمام أسوار الحصـــن ، تحـت بصـر جنـوده وسمعهم ..

وما إن شاهدوا هذا المنظر حتى انهارت مقاومتـــهم ، واقتحـم الجيش العربى الإسلامى الموقع وخفقت من فوقه أعلامهم ..

ولم يصبر خالد ، بل انطلق بعد ذلك إلـــى " دومـــة الجنـــدل " ليساعد (عياض) بناء على أوامر الخليفة .. فقد طال قتاله للأعـــداء هناك .. واستطاع خالد فى وقت قصير أن يوقع بـــهم الهزيمـــة وأن يقتلع حصونهم .. وأصبح الطريق بعد ذلك مفتوحاً أمام جنود العـــرب المسلمين إلى عاصمة الفرس ..

وعندما وصلت الأخبار إلى أبى بكر الصديـــق قـــال عبارتـــه الشهيرة ..

ـــ يا معشر قريش

عدا أسدكم خالد

على أسد فارس فغلبها !

ـــ٣ـــ

معاهـــــدات

عقد خالد مع أهل الحيرة معاهدة صلح .. جاء فيها ..

" هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد

نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة

وأمروهم به ..

عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم

تقبل فى كل سنة

وإن غدروا بفعل أول قول

فالذمة منهم بريئة " ..

وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشـــرة هجرية ..

وساد الأمن والأمان الحـــيرة ، وترفـــق القـــائد البطـــل بـــالفلاحين المظلومين ، وحفظ لهم غلاتهم ، وأنصفهم من حكامهم ومســـتغليهم ، واستمع إلى شكاواهم ، وأنصف الضعاف من الأقويـــاء ، وتكفـــل ـــ كحاكم ـــ بالمسلمين وغير المسلمين وبالعبد إذا تحـــرر والغنـــى إذا افتقر وبالعائلة إذا انقطع عنها ربها .

وكانت الحرب مع الحيرة والفرس ، قد أكلت الأخضر واليـــابس ، ولقى الناس فى أرض العراق مشقة كبيرة فى احتمال القتال ..

ترى ماذا يفعل خالد ؟!

يقول ..

" إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله

فأبوا أن يجيبوا ..

فعرضت عليهم الجزية والحرب

فقالوا : لا حاجة لنا بحربك

ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا ..

من أهل الكتاب ، فى إعطاء الجزية ..

وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه ..

ألا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم

من العرب ولا من العجم ..

وإن خالفوا لا ذمة لهم ولا أمان

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل

أو أصابته آفة من الآفات

أو كان غنيا فافتقر

وصار أهل دينه يتصدقون عليه

طرحت جزيته

وعيل من بيت مال المسلمين وعياله

ولهم كل ما لبسوا من الزى

ألا زىّ الحرب

من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم

وأيما رجل منهم وجد عليه شئ من زىّ الحرب

سئل عن لبسه ذلك

فإن جاء منه بمخرج

وإلا عوقب بمقدار ما عليه من زىّ الحرب ..

وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه

حتى يؤدوه إلى بيت المسلمين

فإن طلبوا عونا من المسلمين أعينوا به

ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين "

كانت تلك المبادئ هى التى صالح عليها خالد بن الوليد أهل العراق ، وامبراطورية الفرس .. معاهدات فيها من أخلاقه الشئ الكثير .. لقد غرس فيها الإسلام حب الإنسانية ، والعدالة .

رحـــــــلات

ـ١ـ

الحـــــاج

وقعت هذه الانتصارات الخالدة قبيل شهر ذى الحجة .. وكـــان لهذا الشهر الكريم عطره الخاص ، ومذاقه الحلو .. إنه شهر الحـــج إلى بيت الله الحرام ، والطواف بالكعبة المشرفة .. وخالد فى شـــوق جارف إلى أداء هذه الفريضة ..

لكن هل يسعفه الوقت ؟!

لم يتبق إلا أسبوعان فحسب ، والمسافة واســعة شاســعة ، ولا سبيل للوصول فى هذه الفترة القصيرة .. غير أن ما يجـــوز علـــى الناس يختلف مع خالد بن الوليد ، لذلك شد الرحال ، وانطلق يطـــوى الفيافى والقفار ، وقد هزه الشوق إلـــى أداء الفريضـــة ، والالتقـــاء بمؤتمر مكة الكبير ، كما أنه يود أن يقدم الشكر والحمد لله ســـبحانه وتعالى على ما منحه من فتوحات ، وأن يكون ذلك فى بيـــت الله أول بيت وضع للناس مباركا ..

انطلقت الناقة تحمل سيف الله ، وتسابق الزمن ، وهو يخشـــى ألاّ يلحق ، ويكون بذلك قد ترك ميدان القتال دون إذن من الخليفـــة ، ودون أن يحقق أمله .. ويعينه الله على الأمر ، وإذا بـــه يقـــف مـــع الواقفين فوق جبل عرفات ، يهلل ويكـــبر ، وإذا بـــه يطـــوف مـــع

الطائفين حول الكعبة ، ويلتم الحجر الأسود .. ثم يقفل راجعاً ليكـــون بين جنده ، الذين ما علموا بسفره وعودته ، لا هم ولا الفرس .. بـــل ولم يعلم أبو بكر الصديق ، وهو فى ذلك العام على رأس حجاج بيت الله الحرام ..

ويتناقل الناس الخبر ، فقد لمحه البعض بين الطائفين الراكعين ، الساجدين ، وثياب الحج لا تخفى أمر صاحبها ، لكن هـــؤلاء الذيـــن رأوه لم يصدقوا أعينهم ، فالرجل لا بد وأن يكون فى ذلك الوقت بين جنده فى أرض العراق ، ولا يعقل أن يتركها إلى الحجـــاز ، لذلـــك رددوا الأمر ما بين مكذب ومصدق ، ولم يصبح الخبر يقينا إلا بعـــد أن رجع إلى مكانه بين جنده ..

ــ٢ــ

ثـــــلاث رسائـــــل

شعر أبو بكر الصديق خليفة المســـلمين أن الجبهـــة الشـــرقية ، والحرب مع فارس ، قد باتت قريبة من نهايتها ، وأحس أن انتصـــار المسلمين أصبح وشيكا ، إذ أدى خالد دوره الخـــالد ، واســـتطاع أن يوقع بالفرس هزائم ساحقة ، ويمكن للقـــادة الآخريـــن أن يتحملـــوا مسئولية مواصلة الغزو ، فما عاد فى مقدور أعداء الإسلام والعروبـــة الاستمرار فى القتال والمقاومة ..

وكانت الجبهة الغربية قلقة والحرب مع الروم قد أصبحت سجالا ، وحان الوقت لكى تتغير الخطط ، ليخـــوض المســلمون معاركــهم بصورة تحقق لهم النصر ، ورفع لواء الإسلام والمسلمين ..

لذلك فكر أبو بكر الصديق فى خالد بن الوليد وفى جيش خــالد ، ورأى أن ينقله إلى الجبهة الغربية ، وإلى حرب الروم ..

وترك لنا التاريخ ثلاث رسائل رائعة ..

أ ــ يبعث أبو بكر من المدينة رسالة إلى خالد فى العراق :

" سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ..

فإنهم قد شجوا وأشجوا ..

وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ..

(يقصد بذلك ذهابه الخاطف إلى الحج)

فإنه لم يشج الجموع من الناس ــ بعون الله ــ شجيك .

ولم ينزع الشجى من الناس نزعك .

فليهنك ــ أبا سليمان ــ النية والخطوة .

ولا يدخلنك عجب ..

فتخسر ، وتخذل ..

وإياك أن تدل بعمل ،

فإن الله له المنّ

وهو ولى الجزاء " .

ب ــ وأرسل أبو بكر إلى أبى عبيدة فى الشام يقول ..

" سلام الله عليك

أما بعد ..

فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام

فلا تخالفه .. واسمع له .. واطلع

فإنى لم أبعثه عليك

ألا تكون عندى خيراً منه

ولكننى أمد له فطنة فى الحرب ليست لك .

أراد الله بنا وبك خيراً

والسلام " .

جـ ـ وبعث خالد إلى أبى عبيدة فى الشام ، يقول :

" أتانى كتاب خليفة الله ، يأمرنى بالسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها ، والتولى لأمرها .، والله ما طلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك الذى كنت عليه ، لا نعضيك . ولا نخالفك ، ولا نقطع دونك أمرا، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك " .

أبو بكر يأمر سيف الله خالد بقيادة جيش الشام ويستجيب البطل .. والخليفة لا يجد فى ذلك حرجا ، بل يكتب إلى أبى عبيدة يبلغه بذلك ولكن سيف الله يحس بالحرج ويكتب إلى أبى عبيدة كأنما يستأذنه ويعده بألا يخالفه ..

هكذا كانت أخلاقهم : صانعة للنصر .

المسـيرة

قال أبو بكر الصديق وهو يختار خالد بن الوليد لقيادة جيش المسلمين فى الشام :

" لأنسين الروم

وساوس الشيطان

بخالد بن الوليد .. "

وكان أمام خالد قرابة الألف كيلو متر ـ بحسابنا اليوم ـ فى أرض صحراء جرداء ، تتربص فيها وحوش جيوش كثيرة : الطبيعة ، والحيوانات ، والأعداء .. لكن متى خاف كل هذا ؟! متى تقاعس عن أمر يأتيه ؟ ..

مما لا شك فيه أن رحلته السريعة إلى مكة كانت ماثلة فى ذهنه ، لقد اتجه فيها إلى الجنوب الشرقى ، وها هو يتجه شرقا ، وسط بحار الرمال ، والماء فيها شديد الندرة ، وليس أيسر من أن يضلوا الطريق .. وهو ليس مسئولا عن نفسه فحسب ، بل هو مسئول عن جيش المسلمين وعدته عشرة آلاف ، لذلك كان لا بد وأن يحسن اختيار الطريق ..

كان هناك أكثر من سبيل للوصول من العراق إلى الشام .. هناك ما هو سهل ، قصير ، يسير ، به ماء وعشب لخيوله وإبله .. لكن هذا الطريق عليه حراس شداد ، قد يقاومون جيشه ، وينقضون

على أطرافه ، ويعوقون مسيرته ، وهو يريدها ســـريعة خاطفـــة .. وهناك طريق ثان غير أنه طويل ، يحتاج لوقت طويل .. وطريـــــق ثالث قال عنه الدليل العجوز ضعيف البصر ..

" إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ،

والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ،

وما يسلكها إلا مغرور

إنها خمس ليال جياد

لا يصاب فيها ماء

مع مضلقها " .

هو طريق مخيف لا يتوقع أحد أنه يسلكه ، وهو فى حاجة إلـــى مفاجأة عدوه ، وإلى اختصار الوقت ، لذلك قال خالد ..

" إن القوة تأتى على قدر النية

وإن المؤمن لا ينبغى له أن يكترث بشئ يقع فيه ، مع معونة الله "

ويضحك الجند والدليل ينصحهم بأن يكثروا من حمـــل المـــاء ، ومن كان قادرا على أن يحتفظ بشئ منه فـــى أذن ناقتـــه فليفعـــل .. وانطلق خالد بجيشه على بركة الله .. مسرعاً ، كالبرق ..

ومضت أيام ، ولم يبق غير يوم واحد ، وفجأة يصيح الدليل :

ـــ ضللنا الطريق !

ـــ ماذا ؟!

ـــ مفروض أن تكون هنا شجرة ، بجوارها ماء .. إذا لم تجدوها فقـد

هلكنا جميعا .. ويفتشون عن الشجرة وســط بحــر الرمــال ، فــلا يجدونها .. وينزل الأمر عليهم كالصاعقة .. ويناشــدهم الدليــل أن يحسنوا البحث ، ويرتفع صوت واحد من الجند ..

ـ ها هو جذر الشجرة .. يبدو أنها قطعت !

وهلل الدليل والجند ، إذ عثروا على المــاء .. واســتكملوا المســيرة الطويلة فى ثمانية عشر يوما ، وهم يجتاحون كــل شــئ أمامــهم ، ويسكتون كل مقاومة ..

وكان لقاء خالد وأبى عبيده فيه فرحة ما بعدها فرحة .. خاصة وأبو عبيدة لم يكن يتوقع وصول الجند فى هذه الفترة القياسية ، لذلــك هلل الجند ، وراحوا يكبرون وجيش الشام يقدم التهنئة للقادمين علــى هذا الإنجاز الكبير .. هم يعرفون كم هـــى طويلــة وقاســية هــذه الصحراء ..

الــــروم

ـ١ـ

الاستعــــداد

كان للمسلمين أربع معارك سابقة فى حربهم مع الروم ..

* غزوة مؤتة ، واستشهد قادتها الثلاثة ، وعاد خالد بالجند ..
* غزوة تبوك ، ولم يلتحم فيها الجيشان ..
* جيش أسامة ، ولم يحدث قتال يذكر بين الجيشين ..
* جيش خالد بن سعيد ، الذى لم ينتصر ..

وكان لابد من حرب الروم أن تمضى وتستمر ، لذلــك وجــه أبو بكر إلى الروم فى الشام أربعة جيوش ، كل منها ما بيـــن ســتة آلاف وثمانية آلاف ..

* جيش على رأسه يزيد بن أبى سفيان يتجه إلى دمشق .
* جيش ثان يقوده شرحبيل بن حسنة فى طريقه إلى الأردن .
* جيش ثالث مع عمرو بن العاص يمضى إلى فلسطين .
* جيش رابع بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ..

ووراء هذه الجيوش كان عكرمة بن أبى جهل فى جيش صغــير يحمى ظهورهم ، ويحرس المؤخرة ، وينجد من يحتاج النجدة .. وقد تقدمت الجيوش الأربعة بنجاح فى بعض الجبهات ، وفى بطء وفـــى جبهات أخرى ، والروم يتصورون أن العرب مشغولون بحربهم مـــع

فارس ، وليس من السهل عليهم أن يحاربوا أعظم دولتين ــ فى ذلك الحين ــ فى وقت واحد .

واستعد هرقل قيصر الروم لملاقاة العرب بجيشين : واحد عنه انطاكية عدته قرابة ربع مليون جندى ، والثانى قرب بيت المقدس فى سبعين ألف .. كان الروم أكثر عددا وعدة ..

ورغم ذلك اقترح القيصر مصالحة المسلمين ودفع الجزية واستقبل الروم وفدا من المسلمين استقبله تيودور ــ شقيق هرقل ــ وهو قائد جند الروم ، ودعاهم إلى خيمة تبدو مظاهر الثراء فى كل ركن منها .. كان قد صنع لنفسه خيمة من حرير ، وذهب إليه وفد المسلمين ليعرض : الإسلام ، الجزية ، الحرب .. وللروم أن يختاروا .. وكان أن رفض الوفد دخول الخيمة ، إن دينهم يأمرهم بألا يفترشوا الحرير ، فما بالكم بخيمة كاملة منه .. كما أن الروم لم يقبلوا شروط المسلمين ..

وبدأ الجانبان يستعدان لمعركة حامية حاسمة .. وكان وصول جيش خالد بن الوليد بعد المسيرة الطويلة مفاجأة ضخمة للمسلمين ، وكانت بشرة خير أن يأتى هذا المدد الكبير وعلى رأسه سيف الله خالد بن الوليد ، الذى لم يهزم فى معركة قط ..

ومع وصول جيش خالد وصلت رسالة من أبى بكر الصديق ينصح جنده قبيل المعركة .. كانت الرسالة منهاجا عظيما لحرب عنيفة يخوضها المسلمون ضد أكبر امبراطورية فى تلك الفترة التالية .. قال الخليفة فى رسالته :

" اجتمعوا .. فتكونوا عسكراً واحداً ، وألقـــوا زحـــوف المشـــركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخـــاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنمـــا يؤتـــى العشـــرة آلاف والزيادة على القوة آلاف .. ، إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسُـــوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك ، متساندين ، وليصل كل رجل منكـــم بأصحابه "

وأتم كل من الجيشين استعداده .. ولقد اختار خليفة رســـول الله : اليرموك لتكون هى المعركة والموقعة .

ـ٢ـ

اليرمـــــــوك

وصلت رسالة الخليفة إلى خالد بن الوليد ، فقرأها علـــى القـــادة والجند ، ثم قال لهم :

" هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخـــر ولا البغـــى ، أخلصـــوا جهادكم ، وارضوا الله بعملكم ، ولقد علمت أن الدنيا خرفت بينـــهم .. فالله الله ..، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ، ولا عنـــد خليفـــة رسول الله ..، هلموا ، فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعـــده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لن نفلـــح بعدها ، فهلموا ، فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخـــر غداً والآخر بعد غد ،حتى يتأمر كلكم ، ودعونى أقيم اليوم " .

ويوافق القادة والجنود على أن يتولى خالد بن الوليد زمام القيادة ، وبدأ يوزع جنده : كان فى القلب أبو عبيدة ومعه عكرمة والقعقـــاع ، وعلى الميمنة عمرو بن العاص ، وعلى الميســـرة يزيـــد بـــن أبـــى سفيان .. ومن خلف هذه الجيوش وقفـــت النســـاء .. ولـــهن دور .. ما إن يحاول مسلم أن يتقهقر حتى تنهال عليــــه الأحجــــار منـــهن ، وترفع الواحدة طفلها ، وهى تهتف :

ـــ قاتل عن أهلك .. وعن الإسلام ..

بل لقد أمرهن خالد بقتل كل من يحاول الهرب من المعركة ..

وألقيت الكلمات الحماسية ، وأنشدت القصائد ، ودقت الطبـــول ؛ وارتفعت أعلام المسلمين وخرج من بين الروم قائد يقول لخالد بــــن الوليد ..

ـــ لقد علمنا أنكم خرجتم من بلادكم بسبب الجوع والفقر ، فإن أردتــم أعطينا كل واحد منكم عشرة دنانير ، وثوبا ، وطعاما .. وترجعـــون إلى بلدكم ، وفى العام القادم نرسل لكم بمثلها ..

ولا يغضب خالد ، بل يرد فى حزم وقوة ..

ـــ ما أخرجنا الجوع من بلادنا ، لكننا خرجنـــا لنـــؤدى الرســـالة ، ونحمل الأمانة ، وننشر الإسلام ـــ دين الحق والعـــدل ـــ فـــى كـــل أرجاء الدنيا ..

وخرج قائد آخر يسأل سيف الله ..

ـــ هل حقاً أنزل الله على نبيكم

سيفا من السماء فأعطاه لك

إذا قاتلت به انتصرت ؟

ـ لا ..

ـ لماذا سماك سيف الله المسلول ؟

ـ تبعته عليه الصلاة والسلام ، وقاتلت من أجل الإسلام ، فقال لى : أنت سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين .. ودعا لى بالنصر

ومنذ ذلك الحين أصبحت أحمل هذا اللقب ..

وعاد كل إلى صفوفه ..

وفجأة علا صوت خالد بن الوليد بكلمة السر ، وهو يرفع راية المسلمين عالية خفاقة ..

هتف قائلا :

ـ الله أكبر .. هبى يا رياح النصر !

وبدأت المعركة ..

تقدم الروم بجحافلهم ، وضغطوا بأعدادهم الكثيرة على جيش المسلمين ، وكان من الطبيعى أن يتراجع هؤلاء قليلا ، وهنا صاحت بهم النساء :

ـ إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة ؟

ويصمد الفرسان ، ويكرون هاجمين على الروم بعنف ما بعده عنف ، وقوة ما بعدها قوة ، ومما لا شك فيه أن كثيرين منهم قد تذكروا كلمة الرسول ﷺ بعد معركة مؤتة :

ـ إنهم الكرار ، بإذن الله !

لقد كروا على أعدائهم وتساقط الشهداء الأبطال ومنهم عكرمة وولده ، لكن ذلك لم يفت فى عضد المسلمين ، بل اندفعوا كالقذيفة نحو جيش الروم يوقعون به أكبر هزيمة لقيها فى تاريخه ..

وتراجع هرقل هارباً ، إلى بيزنطة ، مودعا الشام وداعاً لا لقاء بعده ، وراحت المواقع والحصون تنهار تحت ضربات الأبطال ، وارتفعت أصوات المسلمين تسبح بحمد الله أن جاء نصر الله والفتح ، ورأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ..

وفقد خالد قلنسوته يوم اليرموك ، فأمر جنده بالبحث عنها ، وقد أضناهم ذلك ، إلا أنهم لم يعثروا عليها .. ولكنه ألح فى أن يواصلوا البحث والتنقيب والجميع فى دهشة لهذه القلنسوة البسيطة ، والتى يمكنه أن يستعيض عنها بغيرها من الغنائم الكثيرة التى فاز بها بعد النصر ، لكن سيف الله أصر على أن يجدوا له هذه القلنسوة ، واستمر البحث إلى أن وجدوها وقد بليت وتمزقت ، وأصبحت غير صالحة لأن يلبسها ..

وقد تهلل وجه خالد عند العثور عليها ، وأجاز من وجدها بجائزة كبيرة ، والجميع فى دهشة ، لكنه أزال دهشتهم بقوله :

ـ اعتمر النبى ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس بشعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر ..

-٢-

الجنــــدى

كانت معركة محتدمة مشتعلة ، وخالد يقود أبطالها إلى النصـــر المؤزّر حين وصلت من المدينة رسالة تحمل خبراً محزنـــاً .. فقــد ودع أبو بكر الصديق خليفة رسول الله الحياة ، وتولى من بعده عمـــر بن الخطاب ..

وكان فى بريد المدينة قرار للخليفة الجديد بتنحية خالد بن الوليــد عن قيادة جيوش المسلمين ، وأن يعود أبو عبيدة فيتولاها من جديد ..

أدرك خالد بن الوليد أن هذين الخبرين من الممكن أن يضعفا من موقف المسلمين فى معركتهم ، لذلك أخفى أمر البريد عن المقـــاتلين ، بل طلب من حامل الرسائل ألا ينطق بكلمة واحدة ، أو يتصل بـــأحد من الجند ، وواصل البطل إدارة المعركة ببسالة ورباطة جأش ، والله وحده يعلم كيف كانت تجيش نفسه بالحزن على أبى بكر الصديـــق ، كما أن أحداً لا يمكنه أن يتصور ماذا يدور فى خلده بالنســـبة لأمـــر إبعاده عن القيادة ، ولا كيف يتصرف بعد أن تلقى الرسالة ..

ويتحقق النصر ، وهو نصر كبير ..

وتنجلى المعركة ، ويعلن خالد ما جـــاء بالرســـالتين .. ويتقـــدم باللواء إلى أبى عبيدة بن الجراح ، ويسلمه القيادة ، ويعلن أنـــــه قـــد أصبح واحداً من جنوده لا أكثر ولا أقل ، وهو الـــذى انتصـــر فـــى المعركة منذ لحظات قصيرة ..

ويتساءل الناس :

ــ كيف يحدث هذا ؟ ولماذا ؟ -

ويرد خالد عليهم ..

ــ لا يعنينى أين أكون فى المعركة مادمت أقاتل فى سبيل الله وحده..

ويهتز الجند للرد ، ويتساءلون ..

ــ لماذا فعل الخليفة هذا ؟

ويأتيهم الرد من المدينة ..

ــ أن الخليفة يخاف أن يظن الناس أن الإسلام قد انتصــــر بخـــالد ، وليس بإذن الله !

ويطول الأخذ والرد .. ويرتفع صوت :

ــ وهل ينتصر خالد إلا بإذن الله ؟

ويخلد القائد المنتصر إلى الصمت .. ويطول صمته .. وينطلــق محارباً جندياً فى جيش أبى عبيدة !

الخاتمــــة

ـ ١ ـ

قِنِّسرين

دخل جيش يزيد بن أبى سفيان دمشق ، بعد أن استسلم أهلـــها ، مؤثرين السلام ، راضين بدفع الجزية .. وتوسط لهم أبو عبيدة بـــن الجراح ، حتى لا يُعاملوا معاملة المـــهزومين المقـــهورين فتصـــادر أموالهم ، وتسبى نساؤهم .. وكان أن نزل خالد بن الوليد علـــى رأى أبى عبيدة .. قائد الجيوش !

وكان الروم يتربصون بالمســـلمين ، ووجـــد القـــائد تـــوذر أن الفرصة سانحة له لكى يهاجم جيش يزيد هجوماً مفاجئاً ، بيـــتَ لـــه بالليل ، ورتب أموره .. لكن عين الصقر خالد لا تغفل ، ولا تنـــام .. إنه يرقب تحركات الروم ، وما إن بدأوا الزحف على دمشـــق حتـــى كان مع أبى عبيدة من ورائهم يقتفى أثرهم .. وأبلغ " يزيد " بـــالأمر ، وإذا بجيش الروم قد حوصر بين نارين ، وهزمـــه المســـلمون شـــر هزيمة ، وتخلصوا من توذر إلى الأبد ..

وكانت هناك جيوب للروم فى المناطق التـــى فتحـــت أبوابـــها للمسلمين ، وبقيت هذه الجيوب تقاتل ، وتتآمر ، ومن بينها حصـــون كانت فى (قنسرين) .. وقد حاصرها خالد بـــن الوليـــد ، وقـــاومت

مقاومة شديدة ، ورفضوا أن يستسلموا ، فما كان من سيف الله إلا أن أنذرهم :

" لو كنتم فى السحاب ، لحملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا ! "

وعندما اشتدت المعركة ورغب رجال هذه الحصون وقادتها فى الصلح ، ورفض خالد ذلك وأبى إلا أن يدك هذه الحصون ، ويخرب المدينة ، لكى تعرف المدن الأخرى المصير الذى ينتظرها إذا هى استمرت فى المقاومة ..

واختير خالد بن الوليد حاكماً للمدينة .

ـ٢ـ

العــزل

ودَّع أبو بكر الصديق الحياة ، وجاء " عمر بن الخطاب " خليفة .. وكانت الحرب مع الروم فى الشام تقترب من نهايتها .. وتابع عمر أخبار القتال .. وعلم بزحف قام به خالد على بلاد الروم ، ورجع منه بغنيمة كبيرة ، وقد دفع منها عشرة آلاف درهم لشاعر امتدحه .. وغضب عمر وأمر بأن يجرى أبو عبيدة تحقيقاً فى الأمر .. وكتب عمر إليه .. أن يعزل خالداً عن ولاية قنسرين وأن يقاسم ماله نصفين.. ما أقسى الموقف !

استدعى أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى المسجد ، وجلس المسلمون كأن على رؤوسهم الطير ، يشهدون هذا الموقف ..

القائد المنتصر ، سيف الله ، يحاسبه المسلمون ..
سأله أبو عبيدة : يا خالد ، أمن مالك أجزت الشاعر بعشرة آلاف درهم أم من مال المسلمين ؟ !

ولم يجب خالد ، وأبو عبيدة يكرر السؤال ويعيده ، وعندما طال صمت خالد قام إليه بلال مؤذن الرسول وقال له :
ــ إن أمير المؤمنين قد أمر بأن نقيمك ، وأن نعقلك بعمامتك ، وأن ننزع عنك قلنسوتك حتى نعلم من أين أجزت الشاعر ..

ويسلم القائد المنتصر نفسه للعبد الحبشي ، وإذا ببلال يفلو عمامته ، وينزع قلنسوته ، ويقيد قدميه بشال العمامة ، وخالد لا يمانع ولا يحتج ..

وبعدها سأله بلال : هل من مالك أم من مال المسلمين ؟
قال : لا ، بل من مالي ..
فأطلقه وعممه بيده ، وخالد يقول :
ــ نسمع ونطيع لولاتنا
ونفخم ونخدم موالينا
وقوسم ماله ، حتى لقد اقتسموا نعليه ، وأبو عبيدة يقول :
ــ إن هذا لا يصلح إلا بهذا ..
ــ أجل ، ولكنني لا أعصى أمير المؤمنين فافعل ما شئت ..
ومضى خالد إلى قنسرين وحمص يودع الناس ، ويعلن عليهم خبر عزله ، وكان مما قاله في خطبته إليهم ..

ــ إن أمير المؤمنين استعملني على الشام ، ثم عزلنـــي وآثـــر بـــها غيري ، بعد أن فاضت بخيراتها ..

قال واحد من الحاضرين : صبراً أيها الأمير .. فإنها الفتنة ..

رد خالد في حسم : أما وابن الخطاب حي ، لا ..

وانطلق إلى المدينة المنورة ، واستقبله عمر ..

قال خالد : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك في أمر غير مجمـــل يا عمر !

سأله عمر : من أين لك هذا الثراء ؟

أجاب خالد : من غنائم الحرب .. ما يزيد على الستين ألفاً فهي لــك .

وأحصيت الثروة فإذا هي تزيد عشرين ألف درهم ، فصادرها عمـــر ، وضمها إلى بيت المال وقال له عمر :

ــ يا خالد والله إنك عليّ كريم

وإنك إليّ حبيب

ولن تعاتبني بعد على شئ !

وأرسل عمر إلى كل بلدان المسلمين يقول ..

ــ إنني لم أعزل خالدا عن سخط أو خيانة

ولكن الناس فتنوا به

فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا

وألا يكون بعرض فتنة .

ـ٣ـ

النهايـــــــــة

وحان الوقت لكى يستريح الجسد المضنى المتعب ، وأن تهدأ تلـك النفس الوثابة العظيمة .. وكان ذلك فى حمص عام ٢١ هجرية .. كان خالد دائماً مفتوح العينين ، يقظاً ، وما كـــان يعطـــى الفرصـــة لأعدائه لكى يناموا ، إذ هم يعرفون وثباته كالليث ، كالفهد ، كالنمر .. لذلك يسهرون الليل عساهم يتقون ضرباته ، وما كانوا يعرفون مـــن أين تأتيهم ، ولكنها دائماً تأتى ، لتفل عزيمتهم ، ولكى تلحـــق بـــهم الهزيمة بعد الهزيمة ، وكان هو يبحث عن الشهادة ، ورغـــم ذلـك هاهو يموت على فراشه كأى رجل عادى ..

ورفع خالد بصره إلى الجدار المقابل لفراشه ، لم يجد فيه غـــير سيفه ورمحه ، وترامى إليه صوت صهيل حصانه كأنما ينادى البطل لكى يمتطى صهوته ، راقد غير قادر على أن يتحرك .. ولـــم يكـــن البطل يملك من دنياه غير هذه الأشياء الثلاثة : السيف ، والــــدرع ، والحصان .. وهو ابن الوليد الذى كان صاحب ملايين ، وهو الــــذى غنم الكثير من المعارك والحروب ..

ويتململ خالد فى فراشه ، ويســـألونه عـــن وصيتـــه وتركتـــه فيقول ..

ــ إنه عمر بن الخطاب !

ويسأله من حوله :

ــ كيف ؟ عمر ؟ وصراعكما الطويل ؟ وعزله لك

يقول البطل المنصف ..

ــ " قد كنت وجدت (غضبت) عليه فى نفسى فى أمور ..

وحضرنى من الله حاضر ،عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل! كنت وجدت عليه فى نفسى ، حين بعث إلىَّ من يقاسمنى مالى ، حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ! ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ، ومن شهد بدراً ، وكان يغلظ علىّ ..، وكانت غلظته على غيرى نحواً من غلظته علىَّ ، وكنت أدل عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالى قريباً ، ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه "

لم يجد خالد بين المسلمين من يوصيه بأولاده خيراً من عمر بن الخطاب ، وكم تصارعا خلال الحياة ، وعزله الخليفة ، لكن له فى نفسه منزلة الأخ والشقيق .. ويتلقب خالد بن الوليد ــ سيف الله فى فراشه ــ ويقول ..

" لقد شهدت جميع المواقع ، وقاتلت فى مائة حرب ، وما فى جسدى موضع إلا وفيه : ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، أو رمية سهم ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشى ، حتف أنفى ، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء ، ولقد طلبت القتل فى مكانه ،فلم يقدر لى إلاَّ أن أموت على فراشى ، وما من على شىء أرضى عندى ، بعد " لا إله إلا الله " ، من ليلة شديدة الجليد ، فى سرية من المهاجرين ، بتّها وأنا

مفترش ، والسماء تنهل عليّ ، وأنا انتظر حتى أغير على الكفـــار ، فعليكم بالجهاد " .

وتعوى الرياح ، ويسلم البطل الروح ..

ويبكيه الناس ، وتشيع جنازته فى حمــص ــ حيـث قـبره ــ والحزن يفترش المدن ، والبوادى والسهول وأرض المعــارك التـى خاضها .. ويستمر صهيل حصانه كأنمـا يحييـه التحيـة الأخـيرة ويودعه ..

وعندما يبلغ النبأ عمر بن الخطاب يقول :

" عجزت النساء ، على أن يلدن ، مثل خالد "

صدقت يا عمر !

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

طبـــع بمطبعة وزارة الاوقــــاف

طبع بمطبعة وزارة الأوقاف